# الباب الثاني

## البعد التاريخي لمشروع الهلال الشيعي

obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الثالث

## الدولة الفاطمية

### انحرافات عقائدية وتفريط في بلاد المسلمين

obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الثالث

# الدولة الفاطمية

## انحرافات عقائدية وتفريط في بلاد المسلمين

يعود أصل الدعوة السرية الفاطمية إلى جماعة من الثوريين الملاحدة بزعامة أبي شاكر ميمون بن ديصان البوني المعروف بالقداح. وكان ميمون القداح هذا داعية ملحدًا تفقه في الأساطير الدينية، والبحوث الكلامية والجدل الفلسفي، وكان متآمرًا وافر الإقدام والجرأة، وكان فارسيًّا مجوسيًّا من سبي الأحواز، ثم تظاهر بالإسلام والتشيع.

وقد بدأ ميمون حياته مولى لجعفر بن محمد الصادق، وسُجن في عهد المنصور، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم، ولمّا خرج من السجن، انضم إليه كثير من غلاة الرافضة والحلولية، وادّعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وانتشرت دعوته في جنوب فارس وفي جنوب العراق والبحرين، وانبث دعاته في كل مكان يتسترون ظاهرًا بالتشيع، ويعملون في الخفاء لبث مبادئهم الإلحادية، وكانوا يتوسلون للتأثير في الناس بأعمال التنجيم والسيمياء، وبعض التجارب الكيميائية التي كانوا يتقنونها.

obeikandl.com

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده عبدالله، وكان مثل أبيه براعة وتبحّرًا في المباحث الفقهية والكلامية والنظريات الفلسفية، وكان يدعو لإمامة آل البيت الذين كان يزعم الانتساب إليهم، وكان يدّعي العلم بالغيب والأسرار الروحيّة والعلوم الخفيّة.

وكانت هذه الدعوة الإلحادية ترمي إلى نشر المجوسية بالتأويلات التي يتأول بها دعاتهم على القرآن والسنة، ويستدلون بذلك على أن إمامهم وزعيمهم الأول، ميمون بن ديصان كان مجوسيًّا، ويستدلون أيضًا بما قاله البرذهي، وهو من زعمائهم في بعض رسائله: (إن المبدع الأول أبدع النفس، ثم إن الأول والثاني دبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع، وهذا ما يطابق قول المجوس أن اليزدان خلق أهرمن، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم، غير أن اليزدان فاعل الخيرات، وأهرمن فاعل الشرور).

ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلّص، ولكن بين الوثنية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره وعقيدته، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وسخرية.

وهكذا حمل عبدالله دعوة أبيه، ونظمها ببراعة مدهشة، واتخذ بلدة ساباط، جنوب الفرات، مركزًا لدعوته، ولمّا شعرت السلطات العباسية بخطورة هذه الحركة، نشطت إلى إخمادها، وفرّ عبدالله أولاً إلى البصرة، ومعه الحسين الأحوازي من أقطاب شيعته، فلما جدّت السلطات في المطاردة فرّ الحسين إلى الشام، ونزل ببلدة (سلمية) من أعمال حمص، واتخذها مركزًا للدعوة.

وحمل الدعوة من بعده ولده أحمد، وسيّر الحسين إلى العراق، وهناك استطاع أن يمهد لإضرام الشرارة الأولى في تلك الثورة الملحدة، ونعني ثورة القرامطة التي ابتدأت في جنوب العراق سنة ٢٨٠هـ، على يد الفرج بن عثمان الفاشاني المعروف بذكرويه، وحمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، وهو الذي تنسب إليه القرامطة، وكانت الدعوة قد اجتاحت جنوب فارس كله، وانسابت إلى البحرين والأحساء، وعاش القرامطة حيناً في جنوب العراق. وغزوا الشام غير مرّة، واستقرت دولتهم بعد ذلك في البحرين في أواخر القرن الثالث الهجري، وعصفت مبادئهم الإلحادية الإباحية بالعالم الإسلامي.

وخلف أحمد بن عبدالله بن ميمون في حمل الدعوة الباطنية ابنه الحسين، ثم أخوه محمد المعروف بأبي الشلعلع، وكانت الدعوة قد ثبتت واستقرت، وقويت شوكة أئمتها ودعاتها، وكثرت أموالهم ورسلهم، وبعث محمد بدعاته إلى المغرب وعلى رأسهم أبو عبدالله الحسين بن أحمد المعروف بالشيعي، فنشر الدعوة هناك، وأخذ يبشر بظهور المهدي المنتظر، ثم قام بالدعوة سعيد بن الحسين، ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين: إن سعيدًا هذا ليس ولد الحسين، وإنما هو ولد زوجته اليهودية، ربّاه ولقنه أسرار الدعوة، واختاره للزعامة والإمامة من بعده.

وسعيد هذا هو الذي فرّ إلى المغرب، حينما همّت السلطات بالقبض عليه وإخماد دعوته، ففرّ إلى مصر ومنها إلى إفريقيا، وهناك زعم أنه من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، أو بالأحرى من ولد علي وفاطمة، وتسمى عبيدالله المهدي أبي محمد، وزعم أنه المهدي المنتظر، وكان أبو عبدالله الشيعي قد مهّد له سبيل الدعوة، واجتذب إليه عددًا من القبائل البربرية

القويّة، فاستطاع عبيدالله بعد خطوب وأحداث جمّة أن يجتني لنفسه ملك الأغالبة، وأن يؤسس دولة العبيديين أو الدولة الفاطمية بإفريقيا (٢٩٦هـ - ٩٠٩م)، وتوطدت دعائم الدولة الجديدة بسرعة، ولم تلبث أن غلبت على المغرب كله، ثم فتحت مصر، واتخذتها مستقرًا ومنزلاً (٣٥٩هـ - ٣٦٣هـ)[١].

هكذا نشأت الدعوة الباطنية وتطورت، وظهر وجود صلة قوية بين الدعوة الباطنية والدعوة السرية الفاطمية، بل يمكن القول: إن الدعوة الفاطمية السرية إنما هي الدعوة الباطنية بذاتها.

وفي المصادر الإسماعيلية ما يدل على أن الدعوة السرية الفاطمية، تمت بصلة وثيقة إلى الدعوة التي يعتنقها القرامطة في البداية، فلقد نشأ القرامطة في أكناف الدعوة الشيعية، وتحت ظل أئمة سلمية المستورين. وقد استظل القرامطة في بدء أمرهم بلواء الخلافة الفاطمية، ودعوا لها مذ قامت بإفريقيا، واستمد زعماؤهم منها العهد.

وتعدّ الدعوة السرية الفاطمية من أخطر نواحي العصر الفاطمي كله، فقد قامت الدولة الفاطمية على أسس الدعوة الشيعية في ظروف غامضة، واتشح الخلفاء الفاطميون بثوب الإمامة الدينية، وردّوا بنسبتهم إلى علي بن أبي طالب، وفاطمة ابنة النبي ﷺ، وتعود إمامتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم كانت تسميتهم أيضاً بالإسماعيلية.

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون كل الحرص على صفة الإمامة وعلى توطيدها ونشر لوائها بمختلف الوسائل، إذ هي شعارهم الأسمى، وعماد سلطانهم الروحي، ومعقد مطامعهم السياسية، وقد استطاع الفاطميون أن يجنوا ثمار كفاحهم، فبسطت الدولة ظلها بعد شمال إفريقيا على مصر





obeikandl.com

والشام والحرمين، وكان هذا الانضواء تحت لواء الخلافة الفاطمية يتخذ قبل كل شيء لون الظفر السياسي، بَيْد أنها كانت تحرص على أن تحقق ظفرها المعنوي إلى جانب ظفرها المادي، وأن تغزو عقائد المجتمعات التي يدفعها أو تحملها السياسة على الانضواء تحت لوائها، ومن ثم كان نشاط الفاطميين في بث دعوتهم المذهبية، وفي العمل على توطيد دعائمها.

ولما استقر الفاطميون بمصر، شعروا بالحاجة إلى مضاعفة جهودهم لنشر مذهبهم الإسماعيلي الباطني، وذلك أنها لم تجد في مصر مهدًا خصبًا لدعوتها، فكان عليها أن تتوسل لغزوها بجميع السبل، واعتمدت على الدعاية السرية وغزو الأذهان بطريقة منظمة، وكان لهم دعاة في سائر الأقطار.

وليس أدل على ما كانت ترتبه الفاطمية من عظيم الأهمية على بث دعوتها المذهبية، واتخاذها وسيلة نافذة لحشد المؤمنين والكافة تحت لوائها ما ورد في كتاب المعز الفاطمي إلى الحسن الأعصم أو الأعظم زعيم القرامطة من تلك العبارة القوية التي يشير فيها المعز إلى عناية الدولة الفاطمية ببث دعوتها في مختلف الأقطار: (فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا لنا فيه حجيج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا).

كان للدولة الفاطمية دعوة مذهبية خاصة، وقد أولتها الدولة عناية فائقة، ومن الطبيعي أن تكون مادتها الأولى ما تقوم عليه الدعوة الشيعية الفاطمية من الأصول والمبادئ، وكانت الدعوة تجري على نسق الجمعيات السرية، في مراتب متدرجة من الأهمية والخطورة، ومراتبها تسع، يعرضها الدعاة بالتعاقب، طبقًا لاستعداد التلاميذ وأهليتهم لتلقيها، فلا يصل إلى مراتبها

العليا إلا من كان موضع الثقة والإفضاء، حريصًا على السر، وفيما يأتي ملخص لهذه الدعوات التسع:

**الأولى:** يسأل الداعي المدعو عن بعض المسائل الدينية والشرعية، فإذا كان عارفًا بما سُئل أقرّه الداعي، وإلا فإنه يعرضها عليه للبحث والتأمل، ثم يلقنه أن الدين أمر مكتوم يجهله السواد والكافة، وأن انصراف الناس عن أئمتهم هو أصل الشر والخلاف.

**الثانية:** إذا وثق الداعي بالمدعو، وأنس فيه قبولاً، ووثق بحرصه وكتمانه، عندئذ يلقنه أن الله لا يقبل أن يأخذ الناس الدين والشريعة إلا عن طريق أئمة نصبهم الناس.

**الثالثة:** يلقنه أن الأئمة سبعة، رتبهم الله كما رتب السماوات والأراضين، وأن السابع هو القائم صاحب الزمان وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ويلقي إليه أن عند الإمام علم المستور وبواطن الأمور.

**الرابعة:** يلقن الداعي المدعو أن الأنبياء المعتبرين الناسخين للشرائع سبعة كعدد الأئمة، وكل منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته، ويحفظها على أمته، ويكون له ظهيرًا في حياته، ثم يخلفه بعد وفاته.

**الخامسة:** أنه لا بد مع كل إمام في كل عصر حجج متفرقون في الأرض، وعددهم اثنا عشر رجلاً في كل زمان.

**السادسة:** يحدثه عن شرائع الإسلام وفرائضه كالصلاة والصيام والزكاة، وأن لها معاني باطنة غير ظاهرة، وأنها وضعت على سبيل الرموز لمصلحة عامة. وينتقل به إلى ميدان الفلسفة ونظريات الفلاسفة مثل أفلاطون





obeikandl.com

وأرسطو، ويعلمه أن منطق العقل هو المعوّل عليه في الأمور، لا الأخبار والأشياء المنقولة.

**السابعة:** أن صاحب الشريعة لا يستغني بنفسه، وأنه لا بد من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل، والآخر يصدر عنه، وهذا إنما هو إشارة العالم السفلي لما يحويه العالم العلوي.

**الثامنة:** أن مدبر الوجود والصادر عنه، إنما هو تقدم السابق على اللاحق، والسابق عندهم (الله عز وجل) لا اسم له ولا صفة، ولا يعبر عنه ولا يحدد، فلا يقال هو موجود ولا معدوم، ولا عالم ولا جاهل.

**التاسعة:** الانتقال إلى ميدان العلوم الفلسفية والطبيعية، وما بعد الطبيعة، وأن ما ذكر من الحدوث والأصول، إنما هي رموز إلى معاني المبادئ وتقلب الجواهر، وأن الوحي إنما هو صفاء النفس، فيجد النبي في فهمه ما يلقى إليه ويتنزل عليه، فيبرزه إلى الناس، ويعبر عنه بكلام الله، الذي ينظم به النبي شريعته حسبما يرى من المصلحة في سياسة الكافة، ولا يجب العمل بهذه الشريعة إلا بحسب الحاجة في رعاية مصالح الدهماء، وليس على العارف المستنير أن يعمل بها.

ومن نظريات وأفكار وإلحاد الفاطميين ودعوتهم السرية ما كتبه كبير دعاتهم وزعيمهم حمزة بن علي، يستعرض فيه كثيرًا من أصول دعوته، ويؤيدها بمختلف الشروح والمقارنات، ما يأتي:

- التناسخ، والاعتقاد أن مذهبهم أو دينهم ينسخ جميع الأديان والشرائع السابقة، ويقول: إن الحاكم بأمر الله هو (ناطق النطقاء) جاء بعد



obeikandl.com

النطقاء الستة الذين تقدموه، وكان آخرهم محمد، وهو قائم الزمان جاء بعد السبعة الصامتين الذين جاؤوا بعد محمد ﷺ.

- الحلول أو حلول الروح، فروح آدم أصل البشر قد انتقلت إلى علي بن أبي طالب، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم بأمر الله.
- ألوهية الحاكم بأمر الله، فالحاكم ليس إنسانًا كباقي البشر، ولكن الروح الإلهية حلت به واتخذت صورته، وهذا هو في الواقع أساس المذهب وعماده الجوهري.

وهكذا نجد أنفسنا أمام دعوة فلسفية حرة، ترمي إلى هدم العقيدة الدينية العادية، وإقامة مبادئ فلسفية إلحادية على أنقاضها [٢].

وقد كان الفاطميون الذين يدّعون نسبتهم إلى فاطمة الزهراء يختصون إمامتهم بالصفة الشرعية، ويعدّون الدولة العباسية على هذا النحو غاصبة للإمامة والخلافة، ويتخذون من هذه الدعوى دعامة لإمامتهم الدينية وملكهم السياسي، فهم طبقًا لدعواهم أبناء فاطمة، وهم ورثة علي وبنيه، وهم الشرعيون في إمامة المسلمين ورياسة العالم الإسلامي.

وحيث إن الفاطميين هم من الشيعة الإسماعيليين، فقد كان عليهم أن ينسبوا أنفسهم إلى آل البيت طبقًا لنظرية الإمامة المعتمدة لدى الشيعة، التي تقول: لا يجوز أن يحكم من ليس من آل بيت النبي ﷺ.

وقد حاول فقهاء الشيعة ودعاتها منذ عصر مبكر أن يوجدوا جوًّا قدسيًّا حول الإمامة، وللشيعة على اختلاف فرقهم كتب عدة في مسألة الإمامة،





obeikandl.com

واعتبارها أساسًا من أسس العقيدة الدينية، وانحصارها في علي وبنيه من آل البيت، ويبدو منها جميعًا أن الإمامة هي دعامة الدعوة الشيعية كلها ودعامة دعاواهم في الرياسة الدينية والزمنية.

وقد قامت الدولة الفاطمية متسمة بسمة الإمامة قبل كل شيء، وكان المعز لما قدم مصر سنة ٣٦٢هـ يحرص أشد ما يحرص عليه الإمامة، وكان الحكام الفاطميون يوسمون في الدعاء على المنابر بما يقرب من النبوة، بل إن الإمامة لتقرن في بعض المصادر الإسماعيلية بمرتبة النبوة ذاتها.

ودأب فقهاء الفاطمية على أن ينسبوا إلى خلفائهم المعجزات والكرامات، ومن ذلك ما رواه الداعي عماد الدين إدريس في كتابه (زهر المعاني) واصفًا المهدي: (إنه ولي الأمر صاحب المعجزات ومبين الآيات، المهدي بالله صلوات الله عليه الذي طلع من الغرب، وقام قيام النبي ﷺ مهلكاً لمن ناصبه الحرب...) وما رواه في (عيون الأخبار) عن الحاكم: (وظهرت لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله عليه السلام فضائل لم يسمع بمثلها، ودلائل ظاهر بيان فضلها ومعجزات بهرت الألباب، وآيات لا يشك فيها إلا أهل الزيغ والارتياب).

والمؤكد أن الفاطميين كانوا لا ينتسبون لآل البيت فهم – وفقاً لمبادئهم- غاصبون غير جديرين بالحكم. هناك فريق من المؤرخين يؤيد الفاطميين في دعواهم وفي شرعية إمامهم، ويرجع نسبة إمامهم، ومؤسس دولتهم عبيدالله المهدي إلى الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهذا الفريق هو القلة، ولكن الفريق الأكبر بين العلماء ينكر عليهم هذه الدعوى، ويرى أنهم أدعياء لا يمتون بصلة إلى علي، وهذا الفريق هو الأغلبية، وهو ينسبهم إلى عبيدالله ابن ميمون القدّاح بن ديصان البوني، كما أسلفنا.





obeikandl.com

وممن قال بهذا الرأي، وهو أن هؤلاء الفاطميين يرجعون إلى عبيدالله ابن ميمون القداح، القاضي أبو بكر الباقلاني، وأبو حامد الإسفراييني وأبوالحسين القدوري، والأبيوردي، وعبدالقاهر البغدادي وابن شداد وابن خلكان والنويري وابن حجر العسقلاني وابن حزم الأندلسي[٣].

عندما بدأ الفاطميون دعوتهم في بلاد المغرب، وجدوا أن التشيع كان منتشراً هناك؛ لأن دولة الأدارسة التي أقامها إدريس بن عبدالله بن الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٧٢هـ هي في الأصل دولة علوية شيعية، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب صالحة للدعوة الإسماعيلية، فانتشر التشيع، واعتنقه كثير من البربر، حتى إن أكثر وزراء الأغالبة (في تونس) كانوا على المذهب الشيعي، وكان من أبرز الدعاة للفاطميين في تلك البلاد رجل يقال له أبو عبدالله الشيعي من بلاد اليمن، له من ضروب الحيل ما لا يحصى[٤].

وكان الفاطميون لا يقتصرون في تهييج أهل السنة على إقامة الشعائر الشيعية بل كانوا يرغمون أهل السنة، ويعتدون عليهم ليشاركوهم طقوسهم.

قال المقريزي: (وفي العاشر من المحرم سنة ٣٦٣هـ سار جماعة من المصريين الشيعيين والمغاربة في موكبهم ينوحون، ويبكون على الحسين، وصاروا يعتدون على كل من لم يشاركهم في مظاهر الأسى والحزن ما أدى إلى تعطيل حركة الأسواق وقيام القلاقل)[٥].

ولما آلت الخلافة إلى العزيز سنة ٣٦٥هـ عني كأبيه المعز بنشر المذهب الشيعي، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق المذهب الشيعي كما قصر المناصب المهمة على الشيعيين، وأصبح لزاماً على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقاً لأحكام المذهب الإسماعيلي،

وإذا ما ثبت على أحدهم التقصير في مراعاتها عزل عن وظيفته، وكان ذلك ما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين إلى اعتناق المذهب الفاطمي[٦].

ومن المهم التوقف عند عصر الحاكم بأمر الله، الذي جاء بعد المعز والعزيز؛ لأنه أغرب مراحل هذه الدولة؛ لما عرفه من الأحداث العجيبة، والنوادر الشائقة؛ وما يمازجها من الخفاء والغموض، وما تمتاز به شخصية الحاكم من الأطوار والخواص المدهشة، والنزعات والأهواء المروّعة.

ولي الحاكم بأمر الله (ابن العزيز) الخلافة حدثًا دون الثانية عشرة، وكانت أمه جارية روميّة نصرانية، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة، وكان لهذا النفوذ أثره - بلا ريب - في سياسة التسامح الواضح التي اتبعها العزيز تجاه النصارى، وفي تقوية جانبهم ونفوذهم.

وتنقل المصادر التاريخية لنا أن الحاكم كان سيئ الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال، وكان مؤاخِذاً بيسير الذنب، حاداً، لا يملك نفسه عن الغضب، فأفنى أمماً وأجيالاً، وأقام هيبة عظيمة وناموساً. وكان رديء السيرة، فاسد العقيدة مضطرباً في جميع أموره، يأمر بالشيء، ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه، فيبالغ في نقضه.

وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء[٧].

افتتح عهد حكمه بقتل وصيّه ومدبر دولته برجوان، ثم أمين الدولة السابق الحسن بن عمار، وكان يسرف في القتل، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعًا، دون حكمة ظاهرة إلا ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائي.

وشغف الحاكم بالطواف بمدينة القاهرة وضواحيها، طوال حياته، وكان يصدر الأوامر المدهشة، ففي محرم سنة ٣٩٥هـ، أصدر سجلاً يمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير، وحرّم ذبح الأبقار السليمة إلا في يوم النحر، وحرّم صيد السمك الذي لا قشر له، وكذلك بيعه، وحرّم دخول الحمام بلا مئزر، وحرّم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات من الغروب إلى الفجر، وحرّم بيع الزبيب، وأمر ألا يجتمع الناس في الصحراء، ومنع الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج، وركوب النساء مع الرجال، وحرّم لعب الشطرنج.

وأصدر الحاكم أوامره بهدم كنائس النصارى، وطارد أتباعها، ثم أعطاهم الأمان، وأعطاهم الحرية في إقامة شعائرهم وإعادة بناء كنائسهم.

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها كانت تتناول الناحية الإسلامية أيضًا بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة، وقد كان الفاطميون يحكمون في مصر شعبًا لا يتبعهم من الوجهة المذهبية، فأهل مصر هم على مذهب أهل السنة، بينما الفاطميون شيعة إسماعيلية، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية، وقد حذا الحاكم حذو أبيه العزيز وجده المعز، وعمل لبثّ الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة، فسنة ٣٩٥هـ، أمر بسبّ السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية، وغيرهم من الصحابة) وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد، ولا سيما جامع عمرو، وعلى أبواب الحوانيت والمقابر والدور، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن، وكان يصدر الأوامر الغريبة، ففي رجب سنة ٣٩٤هـ، منع الناس من صلاة





obeikandi.com

الضحى والتراويح، وقبض بالفعل على أناس، وضربوا وشهروا، وفي المحرم سنة ٣٩٥هـ، قرئ سجل بأن يؤذن لصلاة الظهر في الساعة السابعة، ويؤذن لصلاة العصر في الساعة التاسعة، لكنه عاد وأباح صلاة الضحى وصلاة التراويح في رمضان سنة ٣٩٨هـ أو سنة ٣٩٩هـ، لكن في أواسط سنة ٤٠١هـ، صدر سجل جديد بترك (الصلاة خير من النوم) من أذان الفجر، وأن يؤذن بـ(حي على خير العمل) وأن تمنع صلاة الضحى والتراويح.

وجاء في بعض الروايات أن الحاكم حاول أن يعدّل بعض الأحكام الجوهرية كالصلاة والصوم والحج، ولقد كان الحاكم في أواخر عصره يذهب إلى أبعد مدى من الغلو والانحراف، فيؤيد الدعوة السرية إلى فسخ أحكام الإسلام، وإلى الدعوة بألوهيته وقيامه[٨].

ولم يؤثر أن الخلافة الفاطمية قامت بغزو أو عمليات عسكرية ضد الفرنجة لتوطيد أركان الإسلام، بل الثابت تاريخيًّا أنهم كانوا حرباً على أهل الإسلام، سلماً على أعدائه، فهم يضيقون الخناق على أهل السنة، ويجيشون الجيوش لإرغامهم على التشيع، بينما هم مع الفرنجة سلم لهم، بل يستنجدون بهم على أهل السنة.

ومن خيانات الفاطميين وتواطئهم مع الفرنجة ما ذكره المقريزي في الخطط والآثار من أن صلاح الدين الأيوبي لما تولى وزارة العاضد الفاطمي – وكان قد ولاه لصغر سنه وضعفه كما ظن به – قوى نفوذه في مصر، وأخذت سلطة العاضد في الضعف، حتى ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمي، وتجلى استبداده بأمر الدولة وإضعاف الخلافة الفاطمية، حنق عليه رجال القصر ودبروا له المكايد، وقد اتفق رأيهم على مكاتبة الفرنجة ودعوتهم إلى

مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقي من أصحابه بالقاهرة، وانضموا إلى الفرنجة في محاربتهم والقضاء عليه[٩].

وفعلاً جاء الفرنجة إلى مصر، وحاصروا دمياط سنة ٥٦٥هـ، وضيقوا على أهلها وقتلوا أمماً كثيرة، جاؤوا إليها من البر والبحر؛ رجاء أن يملكوا الديار المصرية وخوفًا من استيلاء المسلمين على القدس، فكتب صلاح الدين إلى نور الدين محمود بدمشق، يستنجده فأمده، وبعث صلاح الدين جيشًا بقيادة ابن أخيه وخاله شهاب الدين، وأمدهما بالسلاح والذخائر، واضطروهم إلى البقاء في القاهرة خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمي وجند السودان الناقمين بتدبير المؤامرات ضده[١٠].

وكان من فضل الله أن رد كيد الفرنجة والشيعة الفاطميين الذين كاتبوهم ففشلت هذه الحملة، وانصرف الفرنجة عن دمياط، وذلك لما تسرب إليهم من قلق من جراء ما عانوه في سبيل تموين قواتهم، ووقوع الخلاف بين قوادهم على الخطة التي يتبعونها في مهاجمة المدينة، فضلاً عن ذلك بلغهم أن نور الدين محمود قد غزا بلادهم، وهاجم حصن الكرك وغيره من نواحيهم وقتل خلقًا من رجالهم، وسبي كثيراً من نسائهم وأطفالهم وغنم من أموالهم[١١].

وهكذا دائماً في كل خيانة يحدثونها يجعلون الأمة الإسلامية بين شقي الرحى، بين عدو خارجي وعدو داخلي، فاللهم، انتقم من الخونة.

ومن خيانات الفاطميين أيضًا أنه لما ضعفت دولتهم في أيام العاضد، وصارت الأمور إلى الوزراء، وتنافس شاور وضرغام، فكر شاور في أن يثبّت ملكه ويقوي نفوذه، فاستعان بنور الدين محمود؛ فأعانه ولما خلا له الجو لم





obeikandl.com

يفِ له بما وعد، بل أرسل إلى أملريك ملك الفرنجة في بيت المقدس يستمده، ويخوفه من نور الدين محمود إن ملك الديار المصرية، فسارع إلى إجابة طلبه، وأرسل له حملة أرغمت نور الدين على العودة بجيشه إلى الشام، ولكن سرعان ما عاود نور الدين المحاولة عام ٥٦٢ هـ، فاستنجد شاور بالفرنجة مرة ثانية وكاتبهم، وجاءت جيوشهم خشية أن يستولي نور الدين على مصر ويضمها إلى بلاد الشام، فيهدد مركزهم في بيت المقدس.

ولما وصلت عساكر الفرنجة إلى مصر انضمت جيوش شاور والمصريون إليها والتقت جيوش نور الدين بمكان يعرف بالبابين (قرب المنيا) فكان النصر حليف عسكر نور الدين محمود، ثم سار بعدها إلى الإسكندرية، وكانت الجيوش الصليبية تحاصرها من البحر وجيوش شارو وفرنجة بيت المقدس من البر، ولم يكن لدى صلاح الدين - القائد من قبل نور الدين - من الجند ما يمكنه من رفع الحصار عنها، فاستنجد بأسد الدين شيركوه فسارع إلى نجدته، ولم يلبث الفرنجة وشيعة شاور أن طلبوا الصلح من صلاح الدين فأجابهم إليه شريطة ألا يقيم الفرنجة في البلاد المصرية.

غير أن الفرنجة لم تغادر مصر عملاً بهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها كما يقول ابن واصل: (أن يكون لهم بالقاهرة شحنة صليبية - أي حامية - وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين محمود عن إنفاذ عسكره إليهم. واتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويًّا من دخل مصر)[١٢].

وما إن ذهب الفرنجة في هذا العام حتى عادوا مرة أخرى عام ٥٦٤هـ. قال ابن كثير فيها: (طغت الفرنج بالديار المصرية، وذلك أنهم جعلوا شاور شحنة لهم بها، وتحكموا في أموالها ومساكنها أفواجاً أفواجاً، ولم يبقَ شيء

من أن يستحوذوا عليها ويخرجوا منها أهلها من المسلمين وقد سكنها أكثر شجعانهم، فلما سمع الفرنج بذلك أتوا من كل فج وناحية في صحبة ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ما أخذوا مدينة بلبيس، وقتلوا من أهلها خلقاً، وأسروا آخرين ونزلوا بها وتركوا أثقالهم موئلاً لهم، ثم تحركوا نحو القاهرة.. فأمر الوزير شاور رجاله بإشعال النار فيها على أن يخرج منها أهلها؛ فهلكت للناس أموال كثيرة، وأنفس، وشاعت الفوضى، واستمرت النيران أربعة وخمسين يوماً، عندئذ بعث العاضد الفاطمي إلى نور الدين بشعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نسائي من الفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش لتسييرها إلى مصر، فلما أحس شاور بوصول جيوش نور الدين، أرسل إلى ملك الفرنج يقول: قد عرفت محبتي ومودتي لكم، ولكن العاضد لا يوافقني على تسليم البلد، فاعتذر لهم وصالحهم على ألف ألف دينار، وعجل لهم من ذلك ثماني مئة ألف ليرجعوا؛ فانتشروا راجعين خوفاً من عساكر نور الدين وطمعاً في العودة إليها مرة أخرى، وشرع شاور في مطالبة الناس بالذهب الذي صالح به الفرنج وتحصيله، وضيق على الناس...)[١٣].

كل هذه المحن التي جلبتها خيانات الفاطميين، تشبه إلى حد كبير خياناتهم الحديثة في العراق، فقد كاتبوا الأمريكيين، وكانوا جواسيس لهم، قاتلوا في صفوفهم، أقاموا قواعدهم، قووا مراكزهم، ونهبوا خيرات البلاد.

ومن خيانات الفاطميين أيضاً ما حدث سنة ٥٦٢هـ لما أقبلت جحافل الفرنج إلى الديار المصرية، وبلغ ذلك أسد الدين شيركوه، فاستأذن الملك نور الدين محمود في الذهاب إليها -وكان كثير الحنق على الوزير شاور الفاطمي- فأذن له فسار ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ولما بلغ الوزير شاور قدوم أسد الدين والجيش معه بعث إلى الفرنج، فجاؤوا من كل فج إليه، وبلغ أسد الدين ذلك من شأنهم وأن معهم ألف فارس، فاستشار من معه من الأمراء، فكلهم أشار عليه بالرجوع إلى نور الدين إلا أميراً واحداً يقال له شرف الدين برغش، فإنه قال: من خاف القتل والأسر فليقعد في بيته عند زوجته، ومن أكل أموال الناس فلا يسلم بلادهم على العدو، وقال مثل ذلك ابن أخيه صلاح الدين، فعزم الله لهم، فساروا نحو الفرنج فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فقتلوا من الفرنج مقتلة عظيمة وهزموهم.. ولله الحمد[١٤].

وكان تعاون الفاطميين واضحاً مع الفرنجة لانتزاع الإسكندرية من يد صلاح الدين، فأسد الدين شيركوه لما كان قد أظفره الله بالفرنجة في الوقعة السابقة بمصر على الرغم من خيانة الخونة، رأى أن يفتح الإسكندرية، ففتحها واستناب عليها ابن أخيه صلاح الدين، ثم توجه إلى الصعيد فملكه، وعندئذ اتفق الفاطميون مع الفرنجة على حصار الإسكندرية لانتزاعها من يد صلاح الدين في أثناء غياب أسد الدين شيركوه، فامتنع فيها صلاح الدين أشد الامتناع، ولكن ضاقت عليهم الأقوات والحال جدًّا، فسار إليهم أسد الدين شيركوه، فصالحه الوزير شاور عن الإسكندرية بخمسين ألف دينار، فأجابه إلى ذلك وخرج منها وسلمها للمصريين، ثم عاد إلى الشام، وقرر شاور للفرنجة على مصر في كل سنة مئة ألف دينار وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة[١٥].

ومن المهم أيضاً ذكر خيانة الطواشي مؤتمن الخلافة الفاطمية بمصر. فإنه لما كانت الفرنجة قد طغت بالديار المصرية عندما جعل لهم الوزير





obeikandi.com

الفاطمي شاور شحنة بالقاهرة، وتحكموا في البلاد والعباد، حتى استنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود أن ينقذه ونساءه من أيدي الفرنجة - وكان الفاطميون هم الدين مكنوا لهم، وكاتب شاور الفرنجة وصالحهم على مال جزيل، ثم جاءت جيوش نور الدين بقيادة أسدالدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين واستقر لهم ملك الديار المصرية.

وهنا قام الطواشي مؤتمن الخلافة الفاطمية بالكتابة من دار الخلافة بمصر إلى الفرنجة ليقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا منها الجيوش الإسلامية الشامية، ولكن حامل الكتاب لقيه في الطريق من أنكر حاله، فحمله إلى صلاح الدين فقرره، فأخرج الكتاب وانكشفت المؤامرة، فأمر بقتل الطواشي، فثار له خدم القصر من السودان، فكانوا نحو خمسين ألفاً، وقاتلوا جيش صلاح الدين بين القصرين، فهزمهم صلاح الدين، وأخرجهم من القاهرة وقتل منهم خلقًا[١٦].

استمرت علاقة الفاطميين العبيديين بالصليبيين بعد وفاة وزير الفاطميين، الأفضل بن بدر الجمالي، الذي ذهب بعيدًا في علاقته مع الصليبيين، وسعى للتحالف معهم ضد دولة السلاجقة السنيّة، التي كانت منهمكة في قتال الصليبيين منذ حملتهم الأولى على المشرق الإسلامي.

اغتيل الوزير الأفضل سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) بعد حياة مليئة بموالاة الصليبيين، وخذلان المسلمين، وصحوة متأخرة لاسترداد أملاك الدولة العبيدية الفاطمية، وكان الوزير الأفضل الرجل القوي في الدولة، فهو الوزير صاحب السلطة وأمير الجيوش والمشرف على شؤون القضاء والدعوة، والذي في عهده بدأت بواكير الحركة الصليبية وحملاتها المدمرة على المنطقة.

وعلى الرغم من تعاطف الدكتور أيمن فؤاد سيد مع الدولة العبيدية الفاطمية، لكنه لا يجد مفرًّا من القول: (ولاشك أن الأفضل يتحمّل وحده وِزر سقوط مدن الشام الساحلية التي كانت للفاطميين في أيدي الفرنج، فقد اتصف موقفه تجاه ما كان يحدث باللامبالاة المتناهية، وأدى هذا التهاون إلى استيلاء الفرنج على عكا وطرابلس وجبيل وعِرْقة وبانياس، وبيروت، وصيدا، وتِبْنين وأخيراً صور... بل بلغ الأمر إلى أن وصل بُلْدوين، ملك بيت المقدس، على رأس حملة على الأراضي المصرية حتى الفَرَما، واضطر الأفضل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته)[١٧].

تولى الوزارة في مصر بعد مقتل الأفضل، المأمون البطائحي، الذي كان له دور في قتل سلفه، وعلى الرغم مما كان من ودٍّ بين الآمر العبيدي ووزيره البطائحي، لكن العلاقة ساءت بينهما فيما بعد، لينتهي الأمر بعزل البطائحي وقتله، فاستقل الآمر بالحكم، وقد اشتهر بانغماسه في لهوه وملذّاته، وعشقه للجواري البدويات اللائي أقام لواحدة منهن بناءً بجزيرة الروضة يعرف بـ (الهودج) كان يزورها فيه[١٨].

يقول د. محمد سهيل طقوش: (ويلمس المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية بعد الأفضل فتورًا ملحوظًا في مواجهة الصليبيين، حيث برز اتجاه قوي في الدوائر الفاطمية، وبخاصة بين متطرفي الشيعة، لمهادنة الصليبيين، وعدم طردهم من جنوب بلاد الشام، حيث يشكل بقاؤهم ضمانًا لحماية الدولة الفاطمية المتداعية من أطماع السلاجقة. لكن الإمام الآمر الفاطمي لم يستطع أن يكشف عن سياسته المتراخية تجاه الصليبيين حرصًا على مكانته في العالم الإسلامي)[١٩].





obeikandl.com

رأى الآمر، خليفة العبيديين الفاطميين، أن يسترضي الرأي العام، فأنفذ حملة كبيرة من عسقلان لحصار يافا، وتمكنت هذه الحملة من إحكام الحصار على يافا من البر والبحر، ولكن وصول النجدات الصليبية إلى يافا جعل الفاطميين يفكرون في الانسحاب إلى يبنا (بين يافا وعسقلان). وفي يبنا دارت بين الفاطميين والصليبيين معركة انهزم فيها الفاطميون، فولّوا الأدبار، واقتفى الصليبيون أثرهم، يقتلون ويأسرون، وينهبون ما تصل إليه أيديهم[٢٠].

بعد ذلك لم تلبث أن انكشفت سياسة الخليفة الآمر الفاطمي في مسالمة الصليبيين، فتخلص الفاطميون من القوات الدمشقية السنيّة التي كانت تشترك معهم في الدفاع عن صُور[٢١].

كانت مدينة صور، وهي إحدى المدن الساحلية المهمة في بلاد الشام، قد استعصت على الصليبيين، علر الرغم من غاراتهم المتكررة، وعندما رأى أهل صور عجز الدولة العبيدية الفاطمية عن حمايتهم من الصليبيين في كثير من الأحيان، توجهوا نحو طغتكين، حاكم دمشق من قبل السلاجقة، طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم.

استجاب طغتكين إلى طلب أهالي صُور، وأرسل إليهم جنودًا، وجعل عندهم واليًا من قبله اسمه مسعود، وبعث معه المؤن والأموال، فوزعها على أهل صور حتى طابت نفوسهم، وخلال تلك المدة ظلت الخطبة للآمر العبيدي، ولم يغير طغتكين العملة، إذ كان الهدف هو المساعدة على حماية صور من الصليبيين، لا منازعة الفاطميين فيها، وكتب طغتكين إلى الأفضل، وزير الفاطميين آنذاك، يعرّفه صورة الحال، ويقول له: متى وصل إليها من مصر مَنْ يتولاها، ويذبّ عنها، سلّمَها إليه، فشكره الأفضل على ذلك.

أما أهل صور، فقد أوضح لهم طغتكين سبب قدومه إليهم قائلاً: أنا ما فعلت ما فعلت إلاّ لله تعالى، لا رغبة في حصن ومال، ومتى دهمكم عدوّ جئتكم بنفسي ورجالي[٢٢].

وبدلاً من أن يساعد الفاطميون السلاجقة في الدفاع عن صور وأهلها، ارتكبوا مؤامرة جديدة، تعيد إلى الأذهان مؤامرتهم على بيت المقدس سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) عندما هاجموا القدس وأخذوها من السلاجقة، ثم فرّطوا فيها، واحتلها الصليبيون وارتكبوا مجزرة مروعة ضد أهلها المسلمين، وهكذا استعمل الفاطميون قوتهم ضد المسلمين السنة لا ضد الصليبيين.

قام الفاطميون في عهد خليفتهم الآمر ووزيرهم البطائحي في صور، بما قام به الأفضل سابقًا في بيت المقدس، فسنة ٥١٦هـ (١٠٢٢م) قَرّر العبيديون الفاطميون استرداد صُور من قوات دمشق السنيّة، بدلاً من مساعدتهم في حمايتها ضد الصليبيين، وأرسل الفاطميون أسطولاً إلى صور، قام بإلقاء القبض على واليها سيف الدولة مسعود، وتعيين وحشي بن طلائع والياً عليها من قبل الفاطميين[٢٣].

اعتبر المؤرخون خطوة الفاطميين هذه تعاونًا صريحًا مع الفرنج الصليبيين ضد المسلمين، ونذير شؤم على صور وأهلها؛ لأنه أتاح للصليبيين مهاجمتها مرّة أخرى، فقد كان الصليبيون يرهبون مسعود لشهامته وشجاعته ومعرفته بالحرب ومكايدها[٢٤].

وينقل الباحث يوسف إبراهيم عن ابن تغري بردي استنكاره لما قام به الفاطميون من اعتقال سيف الدولة مسعود، فيقول: (وهذه زيادة في النكاية





obeikandl.com

للمسلمين من صاحب مصر، فإن سيف الدولة المذكور (مسعود) كان قائمًا بمصالح المسلمين، وفعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم، وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة، فأخذوه منها غصبًا، وخلّوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج، فكان حال المصريين في أول الأمر أنهم تقاعسوا عن نصرة المسلمين، والآن بأخذهم سيف الدولة من صور صاروا نجدة للفرنج)[٢٥].

لمّا علم الصليبيون بالأمر، وجدوا الفرصة سانحة لحصار صور ومهاجمتها، فأيقن واليهم المعيّن من قبل الفاطميين، أنه لا قبل له بالدفاع عنها؛ لقلة الجند والمؤن، وأرسل إلى خليفة الفاطميين، الآمر، يقترح عليه إعادة صور إلى طغتكين، فوافق، فعادت إلى طغتكين، الذي رتب بها العدد اللازم من الجند والسلاح[٢٦].

اشتد حصار الصليبيين لصور، فحث أهلها حكام القاهرة (العبيديين) ودمشق (طغتكين) على النهوض لنجدتهم قبل فوات الأوان، فأرسل طغتكين إلى الآمر، خليفة العبيديين الفاطميين، وقادته يحثهم على التحرك السريع لنجدتهم، ولكن رسائله لم تجد حماساً كما كان يأمل[٢٧].

سقطت صور في نهاية الأمر (وارتفع من مصر صوت خافت يتهم الخليفة الآمر الفاطمي بأنه فرّط في صور، ويطالب الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة إيجابية في الجهاد ضد الصليبيين بالشام)[٢٨].

وأبدى المؤرخ ابن تغري بردي استياءه من تفريط الفاطميين، وموقفهم المائع وغير المسؤول، فقال: (وما أبقى أهل صور، رحمهم الله تعالى، ممكناً في قتالهم مع الفرنج في هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر)[٢٩].





obeikandl.com

وسنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) اغتيل الآمر بأحكام الله، خليفة العبيديين الفاطميين، وتولى الحكم بدلاً منه، الحافظ لدين الله، وكان الحافظ هذا من أشد المتحمسين لمسالمة الصليبيين.. وظلت الدولة الفاطمية على هذه الحال، لا تستجيب لأي نداء بضرورة الوحدة الإسلامية، والجهاد ضد الصليبيين، وكانت تقف عقبة في طريق ذلك، وكان الخلفاء الفاطميون يتخلصون من الوزراء الذين ينادون بفكرة الجهاد على وجه السرعة[٣٠].

وفي عهد الحافظ الفاطمي هذا، تولى رضوان بن ولخشي الوزارة (٥٣١هـ/١١٣٧م)، ليكون أول وزير سني في الدولة الفاطمية، وكان الحافظ - قبل تولي رضوان الوزارة - قد ولّى أرمنيًّا نصرانيًّا الوزارة، هو بهرام، الذي مكّن لأهل طائفته في مصر.

كان من الطبيعي أن يؤدي اتخاذ الحافظ العبيدي وزيراً نصرانيًّا إلى مسالمة الصليبيين وإعاقة الجهاد، لكن الأمور بدأت تتبدل مع تولي السني رضوان الوزارة، بعد تغلّبه على بهرام وفرض الأمر الواقع على الحافظ، وكان رضوان من أشد المتحمسين للجهاد ضد الصليبيين، وأنشأ ديوانًا جديدًا أطلق عليه اسم (ديوان الجهاد) وفي الوقت نفسه أخذ يطارد الأرمن النصارى، ويقصيهم عن مناصب الدولة، وبسبب ذلك تعرّض الوزير رضوان لمضايقات ومؤامرات الحافظ الفاطمي، ففرّ نحو الشمال ليستعين بعماد الدين زنكي، أحد أبطال الجهاد ضد الصليبيين[٣١].

ولم تجد محاولات رضوان صداها، إذ قُتل على يد الحافظ، وأخمدت إحدى المحاولات القليلة في عهد الدولة الفاطمية لجهاد الصليبين.

تكرر الأمر مع تولي سني آخر منصب الوزارة، هو العادل بن السلار، سنة ٥٤٤هـ (١١٥٠م) إذ سعى ابن السلار إلى معاودة الجهاد ضد الصليبيين، وعمل على تقوية عسقلان لتكون قادرة على الصمود أمام هجمات الصليبين، حتى مقتله سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م).

وحاول ابن السلار خلال توليه الوزارة الاتصال بنور الدين محمود، أحد أبطال الجهاد ضد الصليبيين آنذاك، وابن عماد الدين زنكي.

أما في عهد الوزراء الشيعة، فيكاد الوزير طلائع بن رُزِّيك (٥٤٩ ـ ٥٥٦هـ/ ١٥٤ ـ ١١٦١م) أن يكون استثناءً من هؤلاء الوزراء، فعلى الرغم من كونه شيعيًّا، لكنه سعى لمحاربة الصليبيين، وحصلت بينه وبين نور الدين اتصالات لعمل مشترك ضدهم[٣٢].

ويشير د. علي الصلاّبي إلى سبب آخر جعل العبيديين الفاطمين يسعون للتقارب مع نور الدين زنكي ودولته السنيّة يتمثل في أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان، وهي آخر معاقلهم في الشام، سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) أدركوا أكثر من ذي قبل خطورة الصليبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري[٣٣].

وعلى الرغم من اهتمام ابن رزيك بقيام تحالف بينه وبين نور الدين، لكنه لم يأتِ بالغرض المنشود، إمّا لأن نور الدين لم يكن يثق بالفاطميين وعروضهم، أو لأن ابن رزيك سرعان ما تم اغتياله بمؤامرة من البيت الفاطمي، ويذكر المؤرخون أنه تأسف في آخر عمره لعدم قيامه بتحرير القدس واستئصال شأفة الصليبيين[٣٤].





obeikandl.com

ويذكر المؤرخون أيضاً أنه الرغم من اهتمام ابن رزيك بمحاربة الصليبين، لكنه سنة ٥٥٥هـ (١١٦١م) هدّد الصليبيون بغزو مصر، منتهزين فرصة الفوضى التي أعقبت مقتل خليفة الفاطميين، الفائز، فتعهد ابن رزيك بدفع جزية سنوية قدرها مئة وستون ألف دينار لثنيهم عن محاولتهم هذه[٣٥].

ولعلّ هذه الجزية التي تعهد ابن رزيك بدفعها للصليبين تختلف عن جزية أخرى ذكرها د. أيمن فؤاد سيد بعد إيراده لجهود ابن رزيك في محاربة الصليبيين، فقال: (ولسبب مجهول، فقد التزم الملك الصالح (ابن رزيك) بأن يدفع للفرنج جزية سنوية مقدارها ٣٣ ألف دينار، امتنع شاور السعدي بعد أن تولى الوزارة عن أدائها لهم)[٣٦].

سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) تمكن الصليبيون من تأسيس أول إمارة لهم في الشرق الأدنى الإسلامي، وهي إمارة الرها (بين الموصل والشام)، ثم استطاعوا في العام نفسه، تأسيس إمارتهم الثانية، وهي إمارة أنطاكية (شمال غرب سورية)، على الرغم من المقاومة التي أبداها السلاجقة، الذين كانوا يحكمون آنذاك شمال بلاد الشام.

كانت الدولة العبيدية الفاطمية، تراقب الوضع عن كثب، لا لنصرة المسلمين، أو تقديم العون للسلاجقة للتصدي للصليبيين، إنما كانت المراقبة لأمر آخر.

يقول د. محمد طقوش: (في الوقت الذي وصلت فيه طلائع الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، كان الفاطميون منهمكين بسوء أوضاعهم الداخلية السياسية والاقتصادية، وتحكّمت فيهم روح العداء للسلاجقة في



obeikandl.com

بلاد الشام، لذلك لم يتحمسوا آنذاك لفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وربما رأى بعض أركان الدولة في هؤلاء درعاً يحميهم من خطر السلاجقة)[٣٧].

كان على رأس الدولة الفاطمية آنذاك، المستعلي بالله، وكان الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي، هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة، إذ إن الدولة الفاطمية عاشت سنوات طويلة في ظل تسلط الوزراء وسيطرتهم على مقاليد الأمور.

أثار موقف (الأفضل) من حصار الصليبيين لأنطاكيا، وتخاذله عن نجدة المسلمين فيها استياء المسلمين، بمن فيهم المؤرخون الذين يميلون في العادة إلى تسجيل الوقائع والأحداث بشكل مجرد دون التعليق أو إبداء الرأي، لكن التقاعس والتخاذل بلغ حدًّا جعل المؤرخ المصري ابن تغري بردي يقول: (ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال)[٣٨].

ويشرح ابن تغري بردي كيف خرجت عساكر المسلمين في العراق وبلاد الشام لصد زحف الصليبيين: (كل ذلك وعساكر مصر لم تُهيّأ للخروج)[٣٩].

و(لم يكتفِ الأفضل بهذا ولم يقف عند هذا الحد، وبدلاً من أن يجيّش الجيوش لصد المعتدين، أرسل سفارة إلى الصليبيين، بينما كانوا يحاصرون أنطاكية، وتفيد بعض المصادر الصليبية بأن الأفضل عندما رأى حصارهم لأنطاكية قد طال، خاف من أن يتسرب الضعف والملل إلى نفوس الصليبيين، لذا أرسل إليهم سفارة ترجو قادتهم مواصلة الحصار، وأكد لهم أنه سيساعدهم بالإمدادات العسكرية والمواد الغذائية، وكلّف سفراء مخصوصين بالعمل على كسب قلوب قادة الصليبيين)[٤٠].





obeikandl.com

وبشيء من الأسى، يقول الأستاذ جمال بدوي: (لم يجد الفاطميون في الانتصارات التي أحرزها الصليبيون في آسيا الصغرى وإنطاكية كارثة عامة حلّت بالمسلمين، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين)[٤١].

لم يكتفِ الفاطميون، ووزيرهم الأفضل الجمالي، بموقف المتفرج، ولا عرض التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة والمسلمين السنة، إنما وجهوا طعناتهم إلى السلاجقة باحتلال عدد من المدن التي بحوزتهم وعلى رأسها: صور والقدس. أي إن الأفضل بدلاً من أن يوجه جنوده وقواته إلى محاربة الصليبيين، وجّهها إلى قتال السلاجقة الذين كانوا منهمكين في قتال الصليبيين والدفاع عن المدن الإسلامية.

ويقول د. طقوش: (إضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة بالتصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوب بلاد الشام، ظنًا منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة)[٤٢].

استطاع الأفضل احتلال صور سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) ولم يحاول أن يهاجم بيت المقدس، وترك ذلك لفرصة أخرى، (وحانت هذه الفرصة في شهر رمضان ٤٩١هـ (١٠٩٨م) والصليبيون لا يزالون في أنطاكية، فخرج من مصر على رأس جيش كثيف، ونزل على بيت المقدس، وحاصره، وفيه الأميران سكمان وإيلغازي، ابنا أرتق بن أكسب، فرَاسَلهما يلتمس منهما تسليم بيت المقدس إليه دون قتال، فامتنعا في بادئ الأمر عن إجابة طلبه، وتحصّنا وراء أسوار المدينة، إذ علما أن دقاقًا (حاكم دمشق) ليس بوسعه أن يبادر بالنهوض إلى





obeikandl.com

مساعدتهما... ومع أن جيش الأفضل تجهّز بأحدث آلات الحصار، من بينها أربعون منجنيقًا، فإن الأراتقة ظلوا يقاومون الحصار مدة أربعين يومًا، ولم يرغمهم على الاستسلام إلاّ ما حدث من تدمير الأسوار، ودخل الأفضل إلى بيت المقدس، واستولى عليه...)[٤٣].

في هذا الوقت كانت الجيوش الصليبية في طريقها إلى القدس، فلم ينتظر الأفضل وصولها أو حتى التصدي لها، بل عاد لتوّه إلى القاهرة[٤٤].

ويؤكد الباحث الأستاذ يوسف إبراهيم أن الدولة الفاطمية كانت على علمٍ بأهداف الصليبيين وخطّ سيرهم حتى قبل وصولهم إلى أراضي الدولة البيزنطية، فقد بلغ الصليبيون أهدافهم، وأمير جيوش الدولة الفاطمية خامل متردد حائر، فرماه بعض المؤرخين بالخيانة. وينقل الباحث عن ابن الأثير (الكامل في التاريخ) قوله: إن أصحاب مصر من العلويين (الفاطميين) لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزّة، ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول الأقسيس إلى مصر وحصرها، فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه[٤٥].

بدأ الصليبيون يزحفون تجاه بيت المقدس مدفوعين بنشوة انتصاراتهم غير آبهين بما اتفقوا عليه مع الأفضل، ويستولون على المدن والقرى التي في طريقهم، (عندئذ أفاق الأفضل من سكرته، ووجد أنه سيكون وجهًا لوجه أمام أصدقاء الأمس، وأعداء الغد، ولا مناص من الصدام بينهما، ولكن الأفضل اكتشف الحقيقة المرة بعد فوات الأوان، وبينما الصليبيون في طرابلس - في طريقهم إلى القدس - بعث إليهم بسفارة ثانية محمّلة بهدايا

وأموال هائلة تفوق ما حملته السفارة الأولى، وإن العرض الجديد يختلف عن العرض السابق، وفحواه أن يمتنع الصليبيون عن دخول القدس على أن يتعهد الفاطميون بالسماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى الأماكن المقدسة في شكل مجموعات صغيرة تتراوح ما بين مائتين وثلاث مئة حاج، بشرط أن يكونوا منزوعي السلاح، ولكنّ الصليبيين ردّوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بمعونة الله، ومن دون وصاية من أحد)[٤٦].

توجّه الصليبيون إلى القدس، وحاصروها مدة أربعين يومًا، لم تصل خلالها إمدادات من الأفضل للحامية الفاطمية في المدينة، وتؤكد المصادر التاريخية أن الصليبيين خلال حصارهم للقدس واجهتهم مشكلات كثيرة، منها: الاستعدادات التي اتخذها حاكم المدينة الفاطمي، إفتخار الدولة، وصعوبة تأمين المياه، وارتفاع الحرارة، وحدوث خلاف بين الصليبيين حول مصير بيت المقدس، وعلى الرغم من هذه الصعوبات لكن الصليبيين استطاعوا اقتحام القدس في ٢٣ شعبان، سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩/٧/١٥م) وارتكبوا مذبحة مروّعة قتلوا فيها سبعين ألفاً من المسلمين، (واحتمى إفتخار الدولة مع طائفة من الجند بمحراب داود، حيث اعتصموا به، وقاتلوا ثلاثة أيام، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان، ثم أطلقوا سراحهم، وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين)[٤٧].

يقول ابن تغري بردي: (والعجيب أن الفرنج لمّا خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت



obeikandl.com

عساكر الإسلام -أي قوات الفاطميين- في غاية القوة، والكثرة، فكسروا -الصليبيون- المسلمين ومزقوا جموعهم).

ويصف الأستاذ جمال بدوي رد فعل الأفضل الجمالي، ودولته الفاطمية، على كارثة احتلال القدس، فيقول: (أما الدولة الفاطمية، فقد تلقت أخبار النكبة في برود، وظلت تغط في سباتها العميق، وحاول الوزير الأفضل أن يفعل شيئًا يمحو به عار التواطؤ الذي أدّى إلى الكارثة، فلمّا بلغه سير الصليبيين نحو القدس، جمع رجاله وخرج إلى فلسطين على أمل أن يحول بين الصليبيين وبين دخولهم القدس، ولكنه وصل إلى عسقلان يوم ٤ أغسطس، أي بعد عشرين يومًا من استيلاء الصليبيين على القدس، وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن اعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون باحتلال شمال سوريا، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفاءهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة.

ولم يَسَع الأفضل عند وصوله إلى عسقلان إلا أن يرسل رسولاً إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوا، على حد تعبير المؤرخ ابن ميسر، ولم يكن أحق بالتوبيخ من الأفضل نفسه، الذي جمع بين سوء النيّة، وضعف التدبير[٤٨].

وهكذا ظلّت القدس بيد الصليبيين، نتيجة تواطؤ الفاطميين العبيديين، إلى أن قيّض الله لهذه المدينة بطلاً من أبطال المسلمين، هو صلاح الدين الأيوبي، تمكّن سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) من تحريرها في معركة حطين، وإصلاح ما قام به العبيديون من خيانة وتخاذل.

وتبوأ اليهود والنصارى مركزاً مرموقاً في مصر خلال حكم الدولة العبيدية الفاطمية الشيعية الإسماعيلية، واعتلى بعضهم أعلى المناصب، وقد

كان لهذا النفوذ اليهودي والنصراني الأثر البالغ في أهل مصر خلال تلك الحقبة، وفي أهل السنة بشكل خاص، وهم الذين يشكلون أغلبية أهل مصر، وهم أصل المسلمين قبل أن يفد إليها العبيديون.

وعند الحديث عن اليهود الذين كان لهم شأن كبير في الدولة العبيدية، فإنه يقفز إلى الذهن فورًا اسم الوزير (يعقوب بن كلِّس)، وهو يهودي عراقي، تولى الوزارة في عهد العزيز بالله الفاطمي، ويُعدّ ابن كلس من مؤسسي الدولة الفاطمية بمصر، وكان صاحب أثر بارز فيها، وقد وضع لها كثيرًا من الأسس التي سارت عليها في سياستها الداخلية خصوصًا في النواحي الاقتصادية والسياسية، التي كان خبيراً بها منذ أن دخل في خدمة كافور الإخشيدي.

وقبل ذلك كان المعز العبيدي قد عهد لابن كلس بالخراج، وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والأحباس والمواريث وجميع ما يضاف إلى ذلك، وما يطرأ في مصر من أعمال.

وعلى الرغم من تعرض ابن كلس لبعض الصعوبات في عهد العزيز بالله، والقبض عليه، لكن العزيز العبيدي سرعان ما أطلقه وأعاده لمركزه مكرّمًا، وزاد نفوذه حتى استولى على حكومة العزيز وشؤونه، وعظمت منزلته عنده.

ويصف الإمام ابن عساكر - رحمه الله - في (تاريخ دمشق) ابن كلس بقوله: (كان يهوديًّا من أهل بغداد، خبيثًا ذا مكر، وله حيل ودهاء، وفيه فطنة وذكاء)، إلى أن ذكر كيف أسلم طمعًا في الوزارة.

لقد أدت هذه السياسة إلى أن اليهود في مصر يعدّون عصر العبيديين عصرهم الذهبي، بل توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد. ولم يكن أهل

السنة في مصر آنذاك ينعمون بما ينعم به أولئك اليهود. وحتى منتصف القرن الخامس الهجري كان يقوم بخدمة حكام بني عبيد سلسلة من الأطباء اليهود بدأت بطبيب المعز موسى بن العازار.

وكان طبيب العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده، نصرانيًّا يدعى أبوالفتح منصور بن مقشر المصري، وكانت له منزلة سامية في الدولة.

وكانت السياسة الفاطمية تذهب إلى أبعد حد من الموالاة لليهود والنصارى، وفي بعض الروايات أن الخلفاء الفاطميين كانوا يشجعون إقامة الكنائس والبيع والأديار، بل ربما تولوا إقامتها بأنفسهم أحياناً[٤٩].

وإضافة إلى ابن كلس، فإن يهودياً آخر تولى الوزارة بالشام، وهو إبراهيم القزاز (منشا).

أما النصارى، فكان لهم نفوذ أيضًا في ظل الدولة العبيدية، وخاصة في عهد العزيز الذي غص بلاطه بهم، وبالغ في إكرامهم؛ لما كان بينه وبينهم من صلة النسب، إذ تزوج العزيز بالله من مسيحية، وكان لها ولابنتها (سيدة الملك) نفوذ واسع في شؤون الدولة.. وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى أرقى المناصب في الكنيسة، فعين أحدهما بطريركًا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الآخر مطرانًا للقاهرة، ثم رقي في عهد الحاكم بأمر الله بطريركًا للملكانيين بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ.

لقد كانت سياسة إعلاء شأن النصارى واضحة قبل عهد العزيز، فبعد وصول المعز إلى مصر قادمًا من إفريقية طلب إليه البطريرك أفرهام السرياني أن يمكنه من بناء كنيسة أبي مرقورة بالفسطاط، وكذلك الكنيسة





obeikandi.com

المعلّقة بقصر الشمع، فكتب له سجلًّا يمكنه من ذلك، وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذا البناء، فتصدى الناس للأقباط الذين يريدون بناء الكنائس، ومنعوهم من البدء في عملية البناء، فجاء المعز، وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين، ثم أمر ببناء كل الكنائس التي تحتاج إلى عمارة.

وعيّن النصراني عيسى بن نسطورس وزيرًا بعد وفاة ابن كلس، فضبط الأمور، وجمع الأموال، وأثقل أهل مصر بالضرائب، وتفشى الغلاء في عهده، واضطرب الأمن حتى إن المؤرخين يذكرون أنه لم يحج أحد في هذه الحقبة من مصر، وبلغ بالناس الجوع مبلغه حتى بلغ عدد الموتى مئة وسبعين ألفاً.

لقد أدت سياسة العبيديين في إعلاء شأن اليهود والنصارى، وإكرامهم وتوليهم الوزارة إلى آثار سلبية على المسلمين، فقد عمّت مظالمهم جماهير المسلمين، وظهر تحيزهم لأبناء دينهما، ويكفي للتدليل على ذلك ذكر قصة العابد المشهور أبي بكر النابلسي - رحمه الله - المتوفى سنة ٣٦٣هـ، حيث سلمه المعز ليهودي ليسلخه فسلخه، وهو يتلو القرآن، كما في (تاريخ ابن كثير). وجاء في (العِبَر) للذهبي أن النابلسي كان قد قال: (لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم سهماً ورميت بني عبيد تسعة)، فبلغت هذه العبارة جوهر الصقلي، فلما قرّره اعترف وأغلظ لهم، فقتلوه.

وكان المسلمون في مصر يمقتون ما يقوم به الوزراء اليهود والنصارى، ويحاولون ما استطاعوا مقاومة هذا النفوذ، وتنبيه حكام بني عبيد إلى ذلك، وقد ذكر المؤرخ المقريزي شيئاً من ذلك، فيقول عن الوزيرين: النصراني عيسى بن نسطورس، واليهودي منشا: (فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين. فعمد أهل مصر، وكتبوا قصة جعلوها في يد صورة (تمثال)،

عملوها من قراطيس (ورق) فيها:

بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك (العزيز بالله) ألا كشفت ظلامتي؟! وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز.

وقد اضطر العزيز أمام تذمّر أهل مصر من هذا الوضع إلى القبض عليهما، وأخذ من ابن نسطورس ثلاث مئة ألف دينار. ولكنه عاد، فأفرج عنه بتأثير من ابنته سيدة الملك.

أما الظاهر بن الحاكم، الذي يضرب به المثل في المجون وشرب الخمر، فلم يكن بعيداً عن سيرة أبيه وأجداده، إذ يروي المقريزي المؤرخ، - على الرغم من أنه من المتعاطفين مع العبيديين - بعضاً من مجون الظاهر، ومودته للنصارى فيقول: (ولخمس بقين من محرم، وكان ثالث فصح النصارى، فاجتمع بقنطرة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طول نهارهم في لهو وتهتك قبيح، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر، حتى حملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر، فكان المنكر شديداً في هذا اليوم.

وركب الظاهر في موكب إلى المقس بعمامة شرب مفوطة بسواد، وثوب دبيقي مدير بسواد، فدار هناك طويلاً وعاد)[٥٠].

وقد كان الشعراء يدلون بدلوهم لما وصلت إليه الأمور من تسلط اليهود والنصارى في عهد العبيديين على المسلمين، فيصورون الدولة، وكأنها تحكم بـ (الثالوث): ابن كلس، والعزيز بالله، والوزير الفضل، ويصوغ الشاعر

الدمشقي الحسن بن بشر ذلك شعراً، فيقول ساخراً:

**تنصّر، فالتنصر دين حق　　عليه زماننا هذا يدل**
**وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا　　وعطّل ما سواهم فهو عطل**

أما نقد سيطرة اليهود، فيعبر عنها الشاعر المصري الحسن بن خاقان، فيقول:

**يهود هذا الزمان قد بلغوا　　غاية آمالهم وقد ملكوا**
**العز فيهم والمال عندهمو　　ومنهم المستشار والملك**
**يا أهل مصر إني نصحت لكم　　تهوّدوا، فقد تهوّد الفلك**

وفي نقد الترف والاستبداد، اللذين تمتع بهما هؤلاء النفر من النصارى واليهود، يقول الشاعر ابن الخلال:

**إذا حكم النصارى في الفروج　　وغالوا في البغال وفي السروج**
**وذلت دولة الإسلام طرًّا　　وصار الأمر في أيدي العلوج**
**فقل للأعور الدجال هذا　　زمانك إن عزمت على الخروج**

وفي عهد الآمر بأحكام الله (ت ٥٢٤هـ)، اتخذ راهباً يعرف بأبي نجاح بن قنا، ووكّله شيئًا من الأمور المالية، فأخذ يصادر من أموال المسلمين الشيء الكثير... فزاد قربه من الأمر حتى لقبّه بـ (الأب القديس الرّوحاني النفيس، أبي الآباء سيد الرؤساء، مُقَدّم دين النصرانية وسيد البطريركية، ثالث عشر الحواريين)، الأمر الذي جعله يتمادى في سطوته، فكثرت إساءته للمسلمين ومصادرته للناس(٥١).





obeikandl.com

واستمر هذا الحال في تقريب اليهود والنصارى وإعلاء شأنهم حتى آخر عمر هذه الدولة، فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي، وزير الآمر، يستخدم الموظفين النصارى بكثرة، فعيّن أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني في ديوان التحقيق، وبقي فيه حتى عام ٥٢٨هـ (١١٣٤م)، كما كان أبو الفضل المعروف بابن الأسقف، كاتب الأفضل الجمالي، والموقّع عنه في الأموال والرجال ومتولي ديوان المجلس، والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة.

وتولى أبو اليمن وزير عبدالمسيح، الديوان بأسفل الأرض. وأحاط الأفضل نفسه بجنود من الأرمن، وشجع على هجرتهم التي بدأت منذ مقدم والده في أيام المستنصر[٥٢].

وعندما تولى الحافظ لدين الله الحكم بعد الآمر، استمر في هذا النهج، وولّى الوزارة سنة (٥٢٩هـ ١١٣٥م) بهرام الأرمني ، ونعته بـ (السيد الأجلّ، أمير الجيوش سيف الإسلام، تاج الخلافة، ناصر الإمام، غيّاث الأنام).

وبعد أن استقر بهرام في السلطة لم يتردد في تبني سياسة شخصية أرمنية مسيحية... فقد سأل الخليفة الحافظ في السماح له بإحضار إخوته وأهله من بلاد الأرمن، فأذن له في ذلك، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان استطالوا على المسلمين، وأصابهم منهم جور عظيم. كذلك بُني في أيامه العديد من الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من الأرمن يبني له كنيسة... وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الإسلام[٥٣].

وفي إطار هذه السياسة، أضحى معظم ولاة الدواوين من النصارى. وولّى بهرام أخاه "فاساك" ولاية قوص في الصعيد، فاستقوى بأخيه، وتمادى في ظلم المسلمين ومصادرة أموالهم[٥٤].

لقد نبه بعض الغيورين إلى مسألة إعلاء شأن الأقليات، ومنها اليهود والنصارى، محذرين من آثارها السلبية، وفي ذلك يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ٩٨/١٠: (ومن المثلات والعبر في هذا أن المسلمين أباحوا في حال عزتهم وسلطانهم لأهل الملل الأخرى حرية واسعة في دينهم ومعاملاتهم في بلاد المسلمين، عادت على المسلمين ودولهم بأشد المضار والمصائب في طور ضعفهم، كامتيازات الكنائس ورؤساء الأديان، التي جعلت كل طائفة منهم ذات حكومة مستقلة في داخل الحكومة الإسلامية، ومن ذلك ما يسمونه في هذا العصر بالامتيازات الأجنبية التي كانت فضلاً وإحسانًا من ملوك المسلمين، فصارت امتيازات عليهم، مذلة لهم، مفضلة للأجنبي عليهم في عقر دارهم، حتى إن الصعلوك من أولئك الأجانب صار أعز من أكابر أمرائهم وعلمائهم).

عندما جاء الغرب الصليبي ليختطف الشرق من التحرير الإسلامي إبان الحروب الصليبية (٦٩٠ - ٤٨٩هـ، ١٠٩٦-١٢٩٠م)، رأيناه يغتصب القدس وفلسطين والشام من الدولة الفاطمية الشيعية التي كانت عقيدتها الباطنية السبب والبداية للانحطاط في التاريخ الإسلامي كما يقول جمال الدين الأفغاني (١٣١٤ - ١٢٥٤هـ، ١٨٣٨-١٨٩٧م).

ووجدنا علي العكس من ذلك دول الفروسية الإسلامية السنية، وخاصة الدولة الأيوبية ٥٦٧ - ٦٤٨هـ، ١١٧١-١٢٥٠م) والدولة المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٢هـ، ١٢٥٠ - ١٥١٧م) هي التي جاهدت وحاربت حتى استعادت الشرق، وحررت مقدسات الإسلام من الصليبيين.

وإذا كان صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧-١١٩٣م) قد أصبح علماً على الجهاد الإسلامي عبر تاريخ الإسلام، وهو القائل للملك الصليبي

ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧ - ١١٩٩م): إنه لن يقوم لكم حجر في هذه البلاد طالما استمر الجهاد.. فإن صلاح الدين هذا هو القائد السني الذي خلص البلاد الإسلامية من انحرافات الشيعة الإسماعيلية الباطنية.. وخلص هذه البلاد من أشرس حملات الصليبيين.. وهو المرفوض عند الشيعة؛ لأنه أزال انحرافاتهم العقائدية، وحرر الأمة من الاحتلال الصليبي الذي جاء على أيديهم.

فمن هم الأغنياء بالبطولات والأمجاد في تاريخ الإسلام؟ ومن هم المقاومون الذين حرروا ديار الإسلام من أخطر الغزوات في تاريخنا الوسيط؟!

وإذا كان الشيعة بزعامة ابن العلقمي (١١٩٧ - ١٢٥٨م) ونصير الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤م) هم الذين فتحوا أبواب بغداد لهولاكو ١٢١٧ - ١٢٦٥م) القديم.. فإن أحفاد ابن العلقمي هم الذين فتحوا أبواب بغداد لهولاكو القرن الواحد والعشرين بوش الصغير، بينما الجهاد السني هو الذي استعاد بغداد من التتار القدماء بل أدخل هؤلاء التتار في الإسلام.

فمن هم الأغنياء في المقاومة وفي الجهاد وفي الأمجاد؟.. ومن هم الفقراء بل البؤساء في هذه الأمجاد على امتداد تاريخ الإسلام؟!

إننا نسأل هؤلاء السذج الذين يزيفون التاريخ: من الذين جاهدوا في أفغانستان فهزموا الإمبراطورية السوفيتية.. السنة؟.. أم الشيعة؟ ومن الذي جاء على الدبابات الأمريكية إلى أرض العراق، وأقام فرق الموت لقتل المقاومين والمجاهدين في العراق؟!

إن رصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذي حرر الشرق من القهر الاستعماري القديم، ففتح أبواب هذا الشرق أمام الإسلام إنما يصب في تاريخ أهل السنة والجماعة الذي هو تاريخ جمهور الأمة... وكذلك كان الحال مع رصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذي حرر ديار الإسلام من الصليبيين والتتار في تاريخنا الوسيط[٥٥].

obeikandl.com

**الهوامش:**

(١) محمد عبدالله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ص٧٥- ٧٧.

(٥) المقريزي، الخطط والآثار، ٣٨٩/١.

(٦) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ص١٩٨.

(٧) محمد عبدالله عنان، مرجع سابق.

(٨) المرجع السابق.

(٩) المقريزي، الخطط والآثار، ٢/٢.

(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢: ٢٦٠.

(١١) المرجع السابق، ٢٦٠/١٢، حسن الحبشي: نور الدين والصليبيون، ص١٤٧ وما بعدها.

(١٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ص١٥٢.

(١٣) ابن كثير، مرجع سابق، ٢٥٥/١٢.





obeikandl.com

(١٤) المرجع السابق، ٢٥٢/١٢.

(١٥) المرجع السابق، ٢٥٢/١٢، ٢٥٣.

(١٦) المرجع السابق، ٢٥٧/١٢، ٢٥٨.

(١٧) د. أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(١٨) المصدر السابق، ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

(١٩) د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، ص ٤٦٦.

(٢٠) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٢.

(٢١) المصدر السابق، ص ١٥٢ – ١٥٣.

(٢٢) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٢٣) المصدر السابق ص ١٥٣، وتاريخ الفاطميين، ص ٤٦٧.

(٢٤) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٦٧، نقلاً عن (الكامل في التاريخ) لابن الأثير.

(٢٥) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، ص ١٥٣، نقلاً عن (النجوم الزاهرة).

(٢٦) المصدر السابق، ص ١٥٣ – ١٥٤.

(٢٧) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٦٩.





obeikandl.com

(٢٨) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٢٩) د. محمد سهيل طقوش، ص ٤٧١، نقلاً عن النجوم الزاهرة.

(٣٠) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٣١) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٣٢) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ١٨٢.

(٣٣) د. علي الصلاّبي، صلاح الدين الأيوبي، صلاح الدين الأيوبي، ص ١٦٧.

(٣٤) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٣٥) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٧٦.

(٣٦) د. أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص ٢٨٤.

(٣٧) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٢٧.

(٣٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٤٧/٥ ـ ١٤٨.

(٣٩) المصدر السابق ١٤٧/٥ ـ ١٤٨.

(٤٠) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٤١) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٤٢) تاريخ الفاطميين، ص ٤٢٩.

(٤٣) المصدر السابق، ص٤٣٠.





obeikandl.com

(٤٤) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٤٢-١٤٣.

(٤٥) جمال بدوي، الفاطمية دولة التفاريح والتباريح، ص ١٤٣-١٤٤.

(٤٦) الفاطمية، ص ١٤٥.

(٤٧) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٣٧ نقلاً عن الكامل لابن الأثير.

(٤٨) جمال بدوي، المرجع السابق.

(٤٩) الحاكم بأمر الله، محمد عبدالله عنان، ص٨٠ نقلاً عن تاريخ أبي صالح الأرمني.

(٥٠) الإسماعيلية، للشيخ ظهير، نقلاً عن الاتعاظ للمقريزي.

(٥١) د. أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص٢٤٠.

(٥٢) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

(٥٣) د. أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص ٢٥٨-٢٦١.

(٥٤) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٠٨.

(٥٥) د. محمد عمارة، صلاح الدين الأيوبي أزال الانحرافات العقائدية وحرر الأمة من الاحتلال، الراية القطرية، ٣٠-٤-٢٠٠٧م.





obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الرابع

## الدولة الصفوية

### محاربة الأمة والتحالف مع أعدائها

obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الرابع

# الدولة الصفوية

## محاربة الأمة والتحالف مع أعدائها

أُسّست الدولة الصفوية سنة ٩٠٧هـ الموافق ١٥٠٢م، على يد الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي، الذي أقام كيانها، وأرسى قواعدها وبنيانها، وفرض فيها المذهب الشيعي بالقوة. وينسب الصفويون إلى الجد الخامس للشاه إسماعيل، وهو صفي الدين الأردبيلي وهو أحد أقطاب التصوف المولود سنة ٦٥٠هـ.

وسنة ٩٠٧هـ توج الشاه إسماعيل نفسه ملكًا على إيران بعد انتصاره على القبائل التركمانية الحاكمة، وما إن تم له ذلك حتى أعلن فرض المذهب الشيعي مذهباً رسميًّا في مختلف أنحاء إيران دون مقدمات، وقد كان أكثر من ثلاثة أرباع إيران من السنة، وكل من عارض هذا الأمر لقي حتفه، فانقاد الناس له.

وبعد استتباب الأمر للصفويين، كان من المنطقي أن تتوجه بعدائها إلى دولة الخلافة العثمانية السنية بسبب العقائد الشيعية المعادية لكل المسلمين،

obeikandl.com

وخاصة أهل السنة، وكانت الدولة العثمانية قد قامت في القرن السابع الهجري في وقت كان المسلمون فيه متفرقين متناحرين، وكان قيام دولة العثمانيين قوة للإسلام وحماية للدول الإسلامية من الاستعمار الصليبي.

لم يرق للصفويين الشيعة أن يروا المسلمين متوحدين تحت خلافة واحدة وخليفة واحد، وأن تعود راية الجهاد إلى المسلمين بعد أن خمدت في النفوس أمدًا طويلاً، فبادر هؤلاء الصفويون إلى توجيه أحقادهم وسهامهم إلى دولة الخلافة التي كانت منهمكة في فتوحاتها وفي الذود عن الإسلام والمسلمين.

كانت الخلافة العثمانية الممثلة لدولة الإسلام تقاتل أعداءها من الصليبيين على محاور عدة، فالروس من الشمال والنمسا من الغرب والإمارات الإيطالية وفرنسا وانجلترا والبرتغاليين في البحار والمحيطات، والكل يحقد على هذه الدولة التي قضت على الدولة البيزنطية إحدى قواعد الدول النصرانية، وتوغلت في أوروبا، وحالت دون انتشار النصرانية ودون امتداد النفوذ الاستعماري الصليبي وطلائعه من البرتغاليين، ومنعت وصولهم إلى القدس وسيطرتهم عليها.

وفي الوقت الذي كان العثمانيون فيه ينطلقون شمالاً وغربًا في فتوحاتهم ودفاعهم عن الإسلام، بدأ الصفويون، منذ عهد المؤسس الشاه إسماعيل بعمل اضطرابات على الحدود الشرقية للدولة العثمانية، وباغتوهم من الخلف، وذلك جعل السلطان العثماني سليم الأول يخرج لملاقاة الصفويين بعد أن شعر بخطرهم، واستمرت الحروب بين الخلافة العثمانية والصفويين زمنًا طويلاً، وعلى الرغم من انتصار العثمانيين في معظمها، لكن هذه المعارك استنزفتهم وأنهكتهم وأعاقت فتوحاتهم ونشرهم الإسلام في أوروبا.





obeikandi.com

لقد بدأ تراجع المسلمين عن البلقان حين اضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة قارلوفجه عام ١١١٠هـ، إذ بمقتضاها خرجت دولة المجر من قبضتها ثم توالت الهزائم وتوالت التنازلات، فإذا تابعنا تاريخ الحروب العثمانية الإيرانية قبل هذا التوقيع لأدركنا تزامن هذه الحروب مع محاولات الدولة العثمانية الوقوف على قدميها أمام الصليبيين من ناحية، وطول أمد هذه الحروب من ناحية أخرى، فقد امتدت إحداها لتصل إلى أربعة وستين عامًا.

وبدلاً من أن يضع الصفويون يدهم في يد العثمانيين لحماية الحرمين الشريفين من التهديد البرتغالي ولتطهير البحار الإسلامية منهم وضعوا أنفسهم في خدمة الأسطول البرتغالي، لطعن الدولة العثمانية من الخلف، وعلى الرغم من انتصار العثمانيين عليهم، فإن الحروب معهم كانت استنزافًا لجهود العثمانيين على الساحة الأوروبية وعرقلة للفتوح الإسلامية.

لقد كان التحرك الصفوي في المشرق والمؤامرات التي كانوا يُديرونها مع أعداء الإسلام ضد الدولة العثمانية والدأب على نشر مذهبهم الشيعي في المنطقة، ومحاولتهم التوسعية على حساب أهل السنة، والفظائع الوحشية التي كانوا يرتكبونها ضد أهل المنطقة، كانت هذه العوامل كلها مجتمعة هي المحرك للعثمانيين للتوجه لقتال الصفويين وتأديبهم والحد من نشاطهم المشبوه. وقامت بين الطرفين معارك متعددة وكبيرة من أشهرها معركة (جالديران) التي انتصر فيها العثمانيون نصراً كبيراً.

في بداية نشأة الدولة الصفوية كانت علاقتها بالدولة العثمانية علاقة ترقب وحذر، وكان بينهما حسن جوار وخاصة عندما كان الحاكم للدولة العثمانية





obeikandi.com

السلطان بايزيد الثاني، حيث كان سلس الطبع يحب الأدب والفلسفة، ولم يكن يفكر في الفتوحات ولا في المعارك، وكانت الرسائل الودية سارية بين الطرفين على الرغم من التجاوزات الكثيرة التي قام بها الصفويون على المناطق المجاورة لهم التي تخضع للسلطة العثمانية.

ثم قام الصفويون بعمل اضطرابات في ولاية «تكه إيلي» في الحدود الشرقية من الدولة العثمانية، وبدأت العلاقات تسوء بين الطرفين، ولكن دون نشوب قتال، حتى جاء السلطان العثماني سليم الأول، والمعروف بقوته وصلابته، حيث شعر السلطان سليم بخطر الدولة الصفوية الناشئة على المنطقة وعلى أهل السنة فيها، وقد كان من المحتم على السلطان سليم القضاء على الصفويين، وذلك حتى يؤمِّن ظهره ليتقدم بعد ذلك في شرق أوروبا ووسطها، فجمع رجال الحرب والأدباء والوزراء وعلماء الدين في مدينة (أدرنه) في التاسع عشر من شهر المحرم عام ٩٢٠هـ وذكر في هذا الاجتماع أن إسماعيل وحكومته الشيعية في إيران بمنزلة خطر كبير على العالم الإسلامي، وأن الجهاد ضد الزنادقة القزلباش واجب ديني على جميع المسلمين.

وبهذا يكون السلطان سليم قد بدأ بالإعداد لمعركة فاصلة وقوية ضد الدولة الصفوية، ثم تقدم السلطان سليم لقتال الدولة الصفوية في الثاني والعشرين من الشهر المحرم عام ٩٢٠هـ التاسع عشر من مارس عام ١٥١٤م وكان يسعى إلى المواجهة العسكرية مع الشاه إسماعيل، ولكن الأخير كان يتهرب من ذلك، ويحاول قطع الطريق وتخريبه ليحول دون وصول القوات العثمانية إلى داخل إيران حتى يأتي الشتاء، فيهلك الجنود العثمانيون من البرد والجوع.

وعندما علم السلطان سليم بنيات الشاه إسماعيل أرسل له وفدًا بهدايا فيها ثياب نساء حتى يعلمه أن فعله من أفعال النساء، فاستحثه للمواجهة

حتى التقى الجمعان في صحراء جالديران، وهزم الجيش العثماني الجيش الصفوي هزيمة نكراء، وكان الجيش العثماني يتفوق بالعدد والعدة، وكان يملك أحدث وسائل القتال التي لا يملكها الجيش الصفوي.

وقد تمكن الشاه إسماعيل من الفرار إلى أذربيجان بعد هذه الهزيمة، ودخلت الجيوش العثمانية تبريز عاصمة الدولة الصفوية، ومهدت الطريق لدخول السلطان سليم، ودخلها فاتحاً منتصراً وأحسن إلى أهلها من الشيعة على الرغم مما فعله الشاه إسماعيل بالسنة عند دخول تبريز.

وقد حدثت مؤامرة لاغتياله عند دخوله دبرها الشاه إسماعيل، ولكنها لم تنجح، وحاول إسماعيل إرسال وفد لإقرار صلح مع السلطان سليم ومعاهدة للسلام، ولكنه رفض، وأودع الوفد السجن.

وعلى الرغم من أن جالديران معركة قوية وهُزم فيها الصفويون هزيمة نكراء، لكنها لم تكن حاسمة، ولم تضع حدًّا للصراع بين الطرفين، فقد ظل الطرفان يتربصان العداء ببعضهما، فبعد هزيمة إسماعيل نهض رؤساء كردستان وكانوا من السنة لمساندة السلطان سليم، وطردوا الحاكم الإيراني من أراضيهم وطلبوا ضمها للعثمانيين، بحيث إنه لم يمضِ وقت طويل حتى انضمت للعثمانيين خمس وعشرون مدينة، وكانت هناك محاولات لإسماعيل لأخذ الثأر، فحرك بعض قادة القزلباش بالإغارة على نواحي أرزنجان، ولكن هزمهم العثمانيون، واحتل العثمانيون ديار بكر وماردين وسائر مدن كردستان، وأصبح الجزء الأكبر من أرض الأكراد في يد العثمانيين، وتحدد الخط الفاصل بين الدولتين، وبهذا أصبح من الصعب على إيران أن تتوسع في النواحي الغربية منها.

وعلى الرغم من مرض السلطان سليم في ٩٢٦هـ/١٥٢٠م لكنه فكر في الخروج من عاصمته على رأس جيش لغزو إيران مرة أخرى، ولكنه مات في الطريق في الثامن من شوال من العام نفسه، وقد شجعت وفاة السلطان سليم الأول إسماعيل على أن يبدأ شغبه من جديد، وتملكته الرغبة في الانتقام لهزيمته من العثمانيين في السنوات الأربع اللاحقة لوفاة السلطان سليم غير أن المنية عاجلته، فمات متأثراً بمرض السل.

وبعد وفاة الشاه إسماعيل جاء عهد ابنه (طهماسب) من بعده، وقد كان عصره امتداداً لعصر أبيه من حيث الصراع مع المعسكر السُّني بجناحيه العثماني والأوزبكي.

وكان الحاكم العثماني – في تلك الحقبة – هو السلطان سليمان القانوني، وكان شعوره بالخطر الشيعي على البلاد وشكايات أهل السُّنة من ظُلم الشيعة واستبدادهم، وواجبه في حماية أهل السنة بصفته خليفتهم، كان ذلك هو المحرك للسلطان لقتال الصفويين، فأعد العدة، واستعد لغزو الدولة الصفوية، وعند سماع الصفويين بذلك اتصلوا بملك المجر ليعاونهم على العدو المشترك، فرد عليهم السلطان سليمان بإعدام الأسرى الفرس الذين كانوا معتقلين لديه، وقرر توجيه حملة قوية إلى إيران، لكنه حوَّل قواته ضد المجر بدلاً من ذلك، نظرًا لحيوية تلك الجبهة وأهميتها للدولة التي كانت الهدف الرئيس لها في مواجهة الصليبيين.

كان العراق قد دان للدولة العثمانية، وذلك بعد أن استرجعوه من أيدي الصفويين، ولكن طهماسب دارت الأطماع في رأسه، فغزا بغداد، واحتلها، وكان حاكمها قد دافع عنها دفاعاً مستميتاً.





obeikandl.com

ثم كانت هناك المحاولات من الشيعة لفرض مذهبهم على أهل العراق الأوسط والجنوبي بما في ذلك بغداد والبصرة، فانطلقت الصرخات من أهل السُّنة في العراق مستغيثة بالسلطان سليمان القانوني، فترك السلطان سليمان إستانبول في ذي الحجة سنة ٩٤١هـ وعبر الحدود متجهًا إلى تبريز، وعين إبراهيم باشا قائدًا للجيش الذي دخل تبريز دون صعوبة ولا سفك دماء، ثم وصل السلطان سليمان إلى تبريز بعد ذلك، وبذل العطايا بسخاء لأهلها، وأكرمهم على عكس فعل الحكام الصفويين الذين كانوا إذا دخلوا بلداً للسُنة أعملوا فيها السيف، وذبحوا أهلها، واستباحوها.

وتحرك الجيش العثماني إلى بغداد في الشتاء، ودخلها السلطان سليمان في ٢٧جمادى الأولى ٩٤١هـ، دون مقاومة، بعد أن قاد كبار علماء السُّنة الشعب في جهاد قضى على زعماء الشيعة والجنود الإيرانيين الذين كانوا يضطهدون أهل السُّنة، وبقي السلطان سليمان في بغداد حتى الربيع لتنظيم الإدارة في الولايات الجديدة وتقوية وسائل الدفاع، وأعلن إلحاق العراق الدائم بالدولة العثمانية، وفي ذلك الوقت انتهز طهماسب انشغال السلطان سليمان في العراق، وعاد إلى تبريز، واستولى عليها، وأعمل القتل في كل من ساعد السلطان سليمان، فأرسل السلطان سليمان فرقة من جيشه لاسترجاع تبريز، ولكنها هُزمت من الجيش الصفوي.

وقد كان السلطان سليمان رجلاً لا يقبل الهزيمة، فتقدم إلى إيران بجيش كبير مزود بالعدة والعتاد، ولما علم طهماسب بذلك فر إلى الجبال بجيشه كي ينقذه من الهلاك، وكانت تلك عادته في كل مرة، ودخل السلطان سليمان تبريز مرة أخرى، وسيطر على كثير من المناطق حولها، ثم استولت القوات





obeikandi.com

العثمانية بعد ذلك على البصرة، وامتد الحكم العثماني بعد ذلك إلى الأحساء وتم إنقاذ المذهب السُّني من الخطر الشيعي، وتأكدت زعامة الدولة العثمانية على العالم الإسلامي، واستمر الوضع على ذلك كرّ وفرّ من الطرفين.

بعد ذلك قام السلطان سليمان بعقد اتفاقية صلح مع الشاه طهماسب في ٨ رجب عام ٩٦٣هـ واعترف طهماسب بموجب تلك الاتفاقية بالحدود العثمانية مثل ما كانت عليه في السابق شاملة آخر الفتوحات، وتعهد بالكف عن دعوته للتشيع، وعدم غارته على الحدود العثمانية. ولعل ما دفع العثمانيين لفعل ذلك هو محاولتهم إيجاد استقرار عند حدودهم الشرقية لكي يتفرغوا للجبهة الغربية، حيث القوات النصرانية ولمواصلة فتوحاتهم في أوروبا. وقد أسعد طهماسب أن تستقر العلاقات بينه وبين العثمانيين، فذلك مكسب له، فقد كانت الدولة العثمانية دولة قوية ذات بأس وجيشها من أقوى الجيوش.

ثم خلف الشاه طهماسب ابنه إسماعيل الثاني الذي يُذكر عنه أنه كانت لديه ميول سُنية، فقد تلقى العلم على يد مُعلم سُني، وكان يرغب في إعادة المذهب السُني إلى إيران، ولكن كانت نهايته القتل مسمومًا على يد رجال القزلباش، وفي مدة حكمه لم تحدث حروب مع الدولة العثمانية.

ثم خلفه أخوه الشاه محمد خُدابنده، وفي عصره حدثت معارك عنيفة مع الدولة العثمانية، وذلك عندما وجد السلطان العثماني مراد الثالث الأوضاع متردية في إيران، فلاحت له فرصة للسيطرة على إيران والقضاء على الدولة الصفوية.

هذا، وقد كانت بينهم معاهدة للصلح، ولكنه يعلم أن الصفويين ينتظرون الفرصة للانقضاض على الدولة العثمانية، فأمر بالهجوم على إيران بقيادة

مصطفى باشا، وتحرك الجيش في الأراضي الإيرانية، وكان النصر حليفه في المعارك التي خاضها، حتى احتل قلعة تفليس.

وبعد وفاة الشاه محمد خلفه ابنه عباس الكبير الذي يُعد من القادة الأقوياء والذي تطورت في زمنه إيران تطوراً كبيراً، وحقق في زمنه الكثير من الانتصارات على الدولة العثمانية التي كان قد بدأ يدب فيها الضعف، فهاجم القوات العثمانية في تبريز وأخرجهم منها وبدأ بالزحف إلى المناطق الأخرى التي تليها، وحدثت معاهدات صلح عدة بين الطرفين على أن يبقى كل طرف في المناطق التي يسيطر عليها، ولكن الجانب الصفوي كان دائم النقض لهذه المعاهدات؛ لأنه كان يشعر بضعف الدولة العثمانية في ذلك الحين.

وقد ساهمت تلك الحروب التي قادها الشاه عباس ضد الدولة العثمانية في إضعافها وتشتيت جهدها عن المواجهة في أوروبا.

وبموت الشاه عباس حدث الضعف والانهيار للدولة الصفوية، وتولى الحكم بعد الشاه عباس حفيده سام ميرزا الذي سمى نفسه (صفي) باسم أبيه الذي قتله جده الشاه عباس، وكان عمر سام ميرزا سبعة عشر عامًا، وتولى الحكم عام ١٠٣٨هـ.

وقد كان للشاه عباس أربعة أبناء قتلهم كلهم وسَمل أعينهم خوفًا على منصبه من أن يزيلوه عنه، فلم يجد أمامه عند احتضاره إلا حفيده المذكور سابقاً.

وفي عهد صفي حدثت اشتباكات عدة بين الصفويين والعثمانيين، فقد حاول العثمانيون استرداد بغداد مرتين خسروا في الأولى ونجحوا في الثانية عندما حاصروها عام ١٠٤٨هـ بقيادة محمد باشا في عهد السلطان مراد، واستسلمت بغداد بعد حصار دام خمسين يوماً.



obeikandi.com

وبعد وفاة الشاه صفي تولى ابنه عباس الثاني الملك في الخامس عشر من صفر عام ١٠٥٢هـ وعمره تسع سنوات، وكانت الوصاية عليه بيد ميرزا تقي أحد الأمراء الذين كانوا حول أبيه، وكان هذا الشاه مسالمًا ولم تحدث في عهده اشتباكات مع الدول المحيطة بإيران.

وبعد وفاته تولى الحكم بعده ابنه صفي عام ١٠٧٧هـ وهو ابن عشرين عامًا، ثم أطلقوا عليه اسم الشاه سليمان ويعد من أشد السلاطين الصفويين فسادًا، قضى حياته بين الخمر والنساء، ولم تحدث في عصره اشتباكات مع الدولة العثمانية.

وبعد وفاته تولى الحكم ابنه حسين ميرزا سنة ١١٠٦هـ وفي عصره دار القتال بينه وبين الأفغان بعدما مارس ضدهم الظلم والاضطهاد، وكذلك هاجم الروس إيران لضعف الدولة في ذلك الوقت، فحملوا عليها مخترقين القفقاس، واستولوا على سواحل بحر الخزر بدءًا من دربند حتى حدود إستراباد فاضطر الشاه إلى عقد اتفاقية مع الروس تنازل فيها رسميًّا عن كثير من المناطق والمدن الإيرانية، وانتهى الأمر إلى قتله.

بعد ذلك تولى الحكم ابنه الشاه حسين طهماسب الثاني عام ١١٣٤هـ، وفي عصره كان الامتداد للنفوذ الأفغاني وحصارهم للمدن الإيرانية، وكانت الفرصة سانحة للعثمانيين للتقدم، فهاجمت الجيوش العثمانية شمال إيران وغربها، وسيطروا على أذربيجان وكرمانشاهان وهمدان، ولصد هذه الهجمات ولإنقاذ إيران عقد طهماسب حلفاً مع قائد الإفشاريين ناد شاه، وكان هذا الحلف الضربة القاضية لملك الصفويين، فقد استبسل ناد شاه في القتال، وكان محبوباً لدى القبائل وخاض معارك كثيرة على جميع الجبهات





obeikandi.com

كان النصر حليفه فيها، وعندما تمكن من الأمر وكان الجميع يعترف له بالفضل في إنقاذ إيران من الهجمات الخارجية طالب بعزل الشاه طهماسب وأقام ابنه الرضيع الشاه عباس الثالث مكانه على الحكم، وأعلن نفسه وصيًّا عليه ولم يمضِ عام على هذا الأمر حتى جمع القادة والأعيان في موقف واحد وقال لهم: من تختارون للحكم؟ فأجمعوا على اختياره هو وعزل الشاه عباس الثالث الرضيع، وكانوا يعلمون أنه يريد هذا الاختيار، وكانت هذه هي نهاية الدولة الصفوية.

وفي الوقت الذي كان فيه ملوك الصفويين غلاظاً جبارين على أهل السنة كانوا رفقاء لينين مع النصارى، كما يعترف بذلك ويُقره الكاتب المؤرخ الشيعي عباس إقبال، حيث يقول: (ولم يكن الشاه عباس فظًّا على غير أهل السنة من دون أتباع سائر المذاهب، لذا فقد جلب في أثناء غزواته لأرمينية والكرج نحو ثلاثين ألف أسرة من مسيحيي هذه الولايات إلى مازنداران، وأسكنهم بها كما رحّل إلى أصفهان خمسين ألف أسرة من أرامنة جلفا وإيران وبنى لهم مدينة جلفا على شاطئ نهر زاينده رود، وأنشأ لهم فيها الكنائس وشجعهم على التجارة مع الهند والبلاد الخارجية بأن أعطاهم الحرية الكاملة).

وقد أثر القتال الذي دار بين الدولة العثمانية والصفويين تأثيرًا مباشرًا على الدولة العثمانية، سواء في المجال العسكري وتقدمها في الفتوحات في أرض أوروبا الصليبية أو في اقتصاد الدولة. فقد أثر القتال في إيرادات الدولة العثمانية من الجمارك التي كانت تحصلها من الطرق القديمة في الأناضول، إذ أُقفلت معظم الطرق التجارية القديمة التي سادها الخطر، وصار التبادل التجاري بين الأقاليم الإيرانية والعثمانية محدوداً؛ إذ انخفض

إيراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسي في حين تحولت سيطرة البرتغال على البحار الشرقية إلى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب - عبر الشرق العربي - التي كانت حينئذ تحت سيطرة الدولة العثمانية.

ولقد استفادت أوروبا اقتصاديًّا استفادة كبيرة، حيث كان الاقتصاد الأوروبي متأثرًا كثيرًا بسبب الحصار العثماني لقوافله ولمناطق النفوذ التجاري، فكسدت التجارة الأوروبية في البر، وهذا ما شجع البرتغاليين على سلوك جانب البحر لاكتشاف الطرق البحرية، فكانت رحلة فاسكوديجاما.

حتى البحر كان الأوروبيون يجدون في سلوكه مشقة، وكانت تجارتهم فيه تتعرض للحصار، وكان العثمانيون قد استطاعوا قطع طريق التجارة القديم الذي يربط أوروبا بالشرق، ولم يعد الأوروبيون قادرين على حمل بضاعتهم إلى الموانئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وكسد حال تجار أوروبا الذين كانوا يتاجرون مع آسيا.

ويكفي قول بوسيك سفير فرديناند في بلاط السلطان محمد الفاتح: (إن ظهور الصفويين قد حال بيننا -يقصد الأوروبيين- وبين التهلكة على أيدي العثمانيين).

وبشهادة أغلب المؤرخين، كان عهد الدولة الصفوية هو عهد إدخال قوى الاستعمار في المنطقة، حيث مهدت له الطريق.

ولقد شهد التاريخ كثيراً من تلك المؤامرات، وخاصة التي كانت في عهد الشاه إسماعيل الصفوي، فبعد الهزيمة المرة التي لحقت به في موقعة جالديران أمام السلطان سليم تحرك للتحالف مع البرتغاليين، لتغطية





obeikandl.com

الهزيمة التي لحقت به في هذه الموقعة، فأقام العلاقات معهم وهم أنفسهم كانوا يبحثون عنها، فقد كانوا جزءًا من أوروبا التي فرحت بظهور الدولة الصفوية حين لاحت لهم بظهورها فرصة انفراج الضغط العثماني عليهم وعلى تجارتهم، ولذلك فقد سعت الدول الأوروبية إلى إسماعيل تعرض عليه تثبيت عُرى الصداقة والمودة؛ لحضّه على إيجاد علاقات سياسية واقتصادية.

وأما البرتغاليون فقد وقعت بينهم وبين الشاه إسماعيل والبوكرك، الحاكم البرتغالي في الهند، اتفاقية نصت على أربع نقاط، هي:

(١) تصاحب قوة بحرية برتغالية حملة إيران على البحرين والقطيف.

(٢) تتعاون البرتغال مع إيران في إخماد حركات التمرد في بلوجستان ومكران.

(٣) تتحد الدولتان في مواجهة الدولة العثمانية.

(٤) تصرف حكومة إيران النظر عن جزيرة هرمز، وتوافق على أن يبقى حاكمها تابعاً للبرتغال، وألا تتدخل في أمورها الداخلية.

وأما اتفاقهم مع جمهورية فينيسيا (البندقية) فكان مخزياً كذلك، فقد كانت فينيسيا من الدول المتأثرة تجاريًّا بسبب قضاء العثمانيين على الدولة البيزنطية وإغلاقها الطريق الرئيس للتجارة بين أوروبا وآسيا، فأرسل الشاه إسماعيل السفراء إلى بلاط فينيسيا طالبًا الهجوم على العثمانيين عن طريق البحر، وأن يقوم هو بالهجوم من ناحية البر، بشرط أن تسترد فينيسيا قواعدها التي فقدتها في البحر الأبيض المتوسط.





obeikandl.com

ومن الدول التي كانت إيران تسعى لإيجاد علاقات معها للتخلص من الدولة العثمانية إسبانيا والمجر، حيث بعث الشاه إسماعيل برسالتين إلى أسبانيا والمجر، طلب فيها عقد معاهدة صداقة وتعاون بينهم وعرض فكرة اتحاد بغرض سحق الأتراك، حسب تعبيره.

وكانت للشاه عباس كذلك اتصالات ومؤامرات مع الجانب الصليبي؛ فقد قدم الشاه عروضاً للأسبان عن طريق البنادقة لكي يتقاسما أراضي الدولة العثمانية، فتحصل الأولى على الجزء الأوروبي، وتستأثر الثانية بالآسيوي، ولم يكن هذا العرض سوى واحد من عروض كثيرة حملها سفراء إيرانيون كانوا يقطعون المسافة بين أوروبا وإيران جيئة وذهاباً.

وقد كانت الاتفاقيات والتحالفات التي عقدتها الدولة الصفوية الشيعية مع الدول الأوربية، وفي مقدمتها البرتغال وهولندا وإسبانيا والمجر وبريطانيا، ضد الدولة العثمانية السنيّة، اتفاقات خيانة وخزي.

كان من نتائج هذه التحالفات: إعاقة الفتح العثماني لأوروبا، ففي الوقت الذي كان العثمانيون يحاصرون المدن والدول الأوروبية تمهيداً لفتحها، يباغتهم الصفويون من الخلف، فيضطر العثمانيون إلى إنهاء حصارهم لأوروبا، والعودة لحماية حدودهم مع الدولة الصفوية، واسترداد البلدان التي وقعت في قبضة الصفويين خلال انشغال العثمانيين بحروبهم الأوروبية، وفي مقدمة تلك البلدان: العراق، التي سقطت في قبضة الصفويين مرات عدة.

وكان من نتائج هذه التحالفات أيضًا: إدخال الاستعمار إلى منطقة الخليج العربي، فقد مهّد الصفويون من خلال معاهداتهم وتحالفاتهم مع الأوروبيين الطريق للدول الأوروبية للوجود في المنطقة واحتلالها، بل التعاون في ذلك،





obeikandl.com

وهو الأمر الذي لا بد من التفصيل فيه بعض الشيء، والتذكير بأن الشيعة الذين يتظاهرون اليوم بلعن أمريكا، ورفع شعارات (الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل)، فإن أجدادهم الصفويين هم من أدخلوا الاستعمار إلى المنطقة، وسهّلوا له احتلاله، وسهّلت إيران في الوقت الحاضر لأمريكا احتلالها لأفغانستان والعراق.

ارتبط الصفويون باتفاقيات مع البرتغال منذ وقت مبكر، منذ عهد أول حكام الدولة الصفوية، الشاه إسماعيل (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، وفي ذلك الوقت كانت البرتغال قوة استعمارية كبيرة، ففي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، كان البرتغاليون قد وصلوا إلى مناطق كثيرة في آسيا وإفريقيا، ولم يكد ذلك القرن يشرف على الانتهاء، حتى كان البرتغاليون قد اكتشفوا رأس الرجاء الصالح، واحتلوا الهند.

وبعد سيطرتهم على مناطق في آسيا، ومنها الهند، تطلع البرتغاليون صوب منطقة الخليج العربي والمشرق الإسلامي، إذ كانوا بصدد إنشاء امبراطورية مسيحية كبيرة في الشرق، إضافة إلى عدم اكتفائهم بالسيطرة على الطرق الرئيسة للتجارة العالمية، إنما العمل على إحكام سيطرتهم على الطرق البحرية الفرعية الأخرى حتى تصبح جميع منافذ التجارة في أيديهم، بحكم أن الخليج العربي هو شريان التجارة المهم إلى نهر الفرات وسواحل الشام.

وبعبارة أخرى اجتمعت لدى البرتغاليين أسباب دينية واقتصادية لاحتلال الخليج، أولها سيطرة الروح الصليبية على الجنود البرتغاليين الذين نشؤوا في وقت احتدام الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس، فأشربوا في قلوبهم الرغبة الجارفة في الانتقام من المسلمين.

وكان للدافع الصليبي كما يتضح أثره في رسائل البرتغال للملك البرتغالي في لشبونة، حيث ذكر أنه إذا سيطر على البحرين والقطيف يصبح الطريق للأراضي المقدسة من ناحية الشرق ممهّدًا للسيطرة البرتغالية على مكة والمدينة، وانتزاع اسم محمد ﷺ من الجزيرة العربية كلها.

أما الأهداف الاقتصادية، فإضافة إلى ما ذكرناه من رغبة البرتغاليين في السيطرة على طرق التجارة الفرعية بعد سيطرتهم على طرق التجارة الرئيسة، فقد كانت بعض مدن الخليج ودوله تعيش نهضة واضحة وازدهاراً وبها ثروات وخيرات كبيرة، خاصة البحرين والقطيف.

قدم الصفويون الخليج للبرتغاليين على طبق من ذهب، ولم يكونوا يأبهون لأغراض البرتغاليين الدينية والاقتصادية، مادامت تحالفاتهم معهم ستؤدي إلى إضعاف الدولة العثمانية، العدو اللدود للصفويين، وإذلال الإمارات السنيّة.

ويذكر المؤرخون أن البرتغاليين كانوا يفكرون في تأجيل احتلالهم للخليج لانشغالهم بالهند، لكن عرض الصفويين للبرتغاليين عجل بغزوهم واحتلالهم للخليج العربي.

دخل البرتغاليون إلى الخليج سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م، أي بعد سنوات قليلة من تأسيس الدولة الصفوية (أُسست سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م) وكانوا قبل ذلك احتلوا جزيرة سوقطرة قبالة اليمن، لكنهم شعروا بعدم جدوى احتلالها، لفقرها من الموارد الطبيعية، ثم حاولوا احتلال عدن، لكنه لم يستطيعوا ذلك فرأوا أن يتجهوا شطر منافذ الخليج العربي، ومنها القطيف.





obeikandl.com

وخشي القائد البرتغالي البوكرك أن يثير تحركه هذا حفيظة الشاه إسماعيل الصفوي، فأراد أن يكسب ودّه، ويأمن جانبه، وليخيف بهذا التقرب، عرب الخليج، فأرسل البوكرك إلى إسماعيل رسالة فيها:

«إني أقدّر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة؛ لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة ستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدّة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي، وسأنفذ له كل ما يريد».

لم يقتصر تحالف الصفويين مع البرتغاليين، بل تعدّاه إلى الجمهوريات الإيطالية، وإسبانيا والمجر وهولندا وبريطانيا، وذلك أوجد لهذه القوى أيضًا موطئ قدم في منطقة الخليج.

وفي مقابل تآمر الصفويين مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية وإمارات الخليج العربي، استبسل أمراء الخليج السنّة (أو بعضهم على الأقل) في الدفاع عن بلادهم ضد الهجمة الصليبية البرتغالية، وبرز هنا اسم السلطان مقرن بن زامل، سلطان البحرين (والبحرين آنذاك كانت تطلق على الجزيرة المعروفة إضافة إلى الساحل الشرقي للخليج)، فعندما بدأت البرتغال استعداداتها لغزو البحرين، ذهب السلطان مقرن إلى الحج لطلب المساعدة من أمراء البلاد الإسلامية وملوكها، وعندما اندلع القتال، قاتل حتى أسر وقتل.

وكان السلطان مقرن أميرًا جليل القدر، معظمًا مبجلاً، في سعة من المال، مالكي المذهب، فلما حجّ ورجع لبلاده لاقته الفرنج في الطريق، وتحاربت معه، فانكسر وقبضوا عليه.... واستولوا على أمواله وبلاده، وكان ذلك من أشد

الحوادث في الإسلام وأعظمها، وقد تزايد شر الفرنج على شواطئ البحر وسواحل المحيط الهندي.

وهكذا لم يجد الصفويون الشيعة مانعاً من مساندة البرتغاليين في محاولتهم الاعتداء على مكة المكرمة والمدينة المنورة، ما دام تحالفهم معهم سيؤدي إلى إضعاف الدول السنيّة.

وتجلت إحدى سياسات الصفويين المنتقصة لمكة المكرمة، في محاولة الشاه عباس (٩٩٦- ١٠٢٨هـ/ ١٥٨٧- ١٦٤٨م) صرف أنظار الإيرانيين إلى مدينة مشهد الإيرانية التي تضم مقام الرضا، ثامن الأئمة الاثني عشر لدى الشيعة، بدلاً من التوجه إلى مكة المكرمة. ومن أجل أن يكون الشاه عباس قدوة للشيعة في ذلك، سار من أصفهان التي كانت عاصمة الصفويين آنذاك، إلى مشهد، ماشيًا، وقطع في الرحلة التي دامت ٢٨ يوماً، أكثر من ١٢٠٠ كيلومتر، ثم بقي هناك مدة ثلاثة أشهر، يعمل فيها مع الخدم في التنظيف، وخدمة زوار مقام الرضا، ومساندة عمال البناء.

وقد جاءت فعلة الشاه عباس الصفوي هذه منسجمة غاية الانسجام مع الفكر الشيعي الذي يفضل مقامات أئمة الشيعة على الحرمين الشريفين، إضافة إلى الخلاف المحتدم آنذاك بين الصفويين والعثمانيين، فاعتبر عباس أن الواجب القومي يحتم عدم السفر عبر الأراضي العثمانية، ودفع رسم العبور لها.

وكان عباس يشجع بعض القبائل الموالية له من التركمان وغيرهم على قطع الطريق، وسلب أموال الحجاج القادمين من آسيا عبر إيران والعراق، والاعتداء على أرواحهم وأعراضهم.





obeikandl.com

**الهوامش:**

**اعتمد المؤلف في هذا الفصل على المصادر الآتية:**

(١) الصفويون والدولة العثمانية، أبو الحسن علوي عطرجي.

(٢) حركات فارسية مدمرة، د. أحمد شلبي.

(٣) الاعتداءات الباطنية على المقدسات الإسلامية، د. كامل الدقس.

(٤) تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، أحمد الكاتب.

(٥) تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف، علي الدرورة.

(٦) تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية، د. محمد محمود خليل.

(٧) عودة الصفويين، عبدالعزيز المحمود.



obeikandi.com